في حضرة المريود

كتاب جيل جديد (١)



الطيب
صالح

موسم
الهجرة

دومة
ود حامد

ضو
البيت

المريود

عرس
الزين

PDF

كتاب جيل جديد (١)

في حضرة المريود

PDF

- في حضرة المريود
- كتاب جيل جديد (١)
- فبراير ٢٠١٥م

مقدمة :

راشد يسلم:

يقول الشاعر محمد المكي إبراهيم أن الطيب صالح قد أطلق اسم مريود على بطل إحدى رواياته ومن ثم جعله عنواناً لها ، فكأنما نفخ بذلك في روح هذا الإسم ومنحه حياة جديدة ؛ إذ سرعان ما أصبح اسماً للمحلات والبقالات واللواري والشاحنات كما غدا إسمًا معتمداً لمجلة أطفال إشتهرت آنذاك ، ولا يوجد من بين أدباء السودان من إقترب من هذا النجاح الداوي إلا التجاني يوسف بشير عبر ديوانه الشهير" إشراقة " ، ومحمد عبد الحي بقصيدته " السمندل يغني " ، لكن في حين أتت هذه التسميات من قواميس اللغة العربية وكتبها القديمة ، إلتقط الطيب صالح مفردة " مريود " من الريد والتي هي عبارة عن التصريف السوداني للفظ " يريد " ، وكأنما كان ذلك نوعاً من الفال الطيب لأن أديبنا الكبير هو من كان أجدر الناس بالريدة وبوصف المريود .

و يمكن القول أن المريود ومنذ البدء كان رهانه على الناس البسطاء متيقناً بأنهم المادة الخام لأي إبداع ، فقد كان يؤمن بأنهم خبراء الحياة الحقيقيون ، لذا حين قرأ هؤلاء البسطاء ما كتبه قالوا له : (دا كلامنا زاتو، لكن فهو شويه لولوه) ، فأجابهم بأريحيته المحببه : (هذه اللولوه هي التي يسمونها فنًا) ، حتى أطلق عليه رجاء النقاش لقب : " الكاتب القومي للشعب السوداني " .

دخل الطيب صالح ساحة الأدب فوجدها مكتظة بالكتاب والشعراء والنقاد والأكاديميين ، وشاهد من مكانه جدالهم الذي لا ينتهي وتصنيفاتهم المتشعبة وتعريفاتهم المرهقة للحداثة ومابعدها ، فنأى بنفسه عنها : (عمومًا أنا لا أشغل نفسي بهذه الأنماط (حداثة...أو ما بعد حداثة...إلخ)، أنا أكتب وخلاص) فقال مايريده ومضى ، لكنه أحدث فتحاً للآتين من بعده حين نجح في إخراج الرواية العربية وكُتابها من مظلة العملاق نجيب محفوظ .

وحين نتساءل اليوم ونحن نعد هذا الملف في ذكرى رحيله السادسة (١٢ يوليو ١٩٢٩ – ١٩ فبراير ٢٠٠٩) عن عبقرية هذا الرجل وأين تكمن بالتحديد ، فأعتقد أننا سنغض الطرف عن كمية منتوجه لأنه لم يكن بغزارة ما كتبه الكثيرون غيره ، و سنغض الطرف كذلك عن الجوائز التي حصل عليها ، لأن الطيب صالح لم يكن أديب شباك ، لكنها كانت - بالنسبة لي على الأقل - في تمكنه من مراوغة ربات الفن وعدم إستسلامه لمتطلبات التجربة الإبداعية ، فعندما سُئلّ ذات مرةٍ عن سبب توقفه عن الكتابة في مجلة المجلة قال ببساطة العارف : لأنه

لم يعد لدي ما أضيفه للقاريء ، إذ كان يدرك أن هذه المتطلبات تلتهم الحياة .. (كل أنواع الكتابة بغيض إليّ وأنا لا أكتب إلا إذا بلغ السيل الزبى) .

ونحن هنا في جيل جديد نحاول الإحتفاء عبر هذه الأقلام الشبابية بأديبنا الكبير ، مقدمين هذا الكتاب المتواضع الذي نحاول من خلاله تغطية سيرة الروائي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس كما فعل معشوقهُ المتنبئ من قبل ، حيث قسمناه لفصلين يحتوي الأول على مقالات كتاب المجلة وقراءاتهم للطيب صالح ، بينما يحتوي لفصل الثاني على مختارات من القصص الغير معروفة لغالب الناس ، إضافة لمقالات كان يكتبها الراحل في مجلة المجلة لنطلع من خلالها على جانب من موسوعية وثقافة الرجل .

الفصل الأول

موسم الهجرة الى الشمال وعبقرية الطيب صالح الروائية .

<u>سانديوس كودي :</u>

لا يحتاج الأمر لعناء لتكتشف وأنت تتجول بين صفحات رواية موسم الهجرة الى الشمال أن الطيب صالح هو ليس مجرد كاتب روائي جيد أو مبدع ، بل هو كاتب عبقري بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، الرواية التي صدرت في ستينات القرن الماضي كتبت بلغة رفيعة وإسلوب متقدم على ذلك الزمن ، اسلوب يجعل الرواية تصلح لأن تقرأ في أي زمان ومكان كعمل يفوق الأعمال الحديثة إبداعاً ، ما يبين عبقرية الطيب صالح في الرواية هو إستخدامه لبطل غريب في تصرفاته وبالغ في الغموض مثل مصطفي سعيد الذي يقول عن نفسه في مستهل الرواية :

" ألا إنني منذ صغري كنت أحس بأنني .... أنني مختلف، أقصد إنني لست كبقية الأطفال في سني ، لا أتاثر بشيء ، لا أبكي اذا ضربت ، لا أفرح إذا أثنى علي المدرس في الفصل، لا أتألم لما يتألم له الباقون ، كنت مثل شيء مكور من المطاط ، تلقيه في الماء فلا يبتل ، ترميه على الأرض فيقفز".

وزميلة دراسة له في القاهرة كانت قد أحبته ثم كرهته ، قالت له:

"أنت لست إنساناً ، أنت آلة صماء ".

أما مسزروبنسون التي إستقبلته حين حل بالقاهرة لأول مرة هي وزوجها ، فهي كانت تقول له :

" أنت يا مستر سعيد إنسان خالي من المرح تماماً "

بطل بهذا الغموض والغرابة كان يصعب لأي راوي أن يستخدمه بسهولة في أي عمل عادي، ما بالك برواية كتبت لتعالج امراً معقداً مثل الصراع بين الشرق العربي/الافريقي والغرب في ذاك الزمن الذي كانت فيه أغلب دول الشرق الأوسط ترزح تحت نير الإستعمار الأوربي ، بالإضافة لأنها كتبت في الفترة التي أعقبت الإستعمار مباشرة حيث إن بعض ما فعله المستعمرون كان لازال عالقاً في نفوس ذلك الجيل الذي عاصر فترتي الاستعمار والاستقلال ، ويبان هذا في ما يحكيه المأمور السوداني المتقاعد للبطل الثاني في الرواية حين يلتقيه في طريق الخرطوم الأبيض، حيث يقول المأمور عن الأنجليز:

" كانوا يتصرفون كالآلهة ، يسخروننا نحن الموظفين الصغار أولاد البلد لجلب الجبايات، ويتذمر الناس منا ويشكونا للمفتش الانجليزي ، وكان المفتش طبعا هو الذي يغفر ويرحم ، هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا ، نحن أبناء البلد، وحبهم هم المستعمرون الدخلاء ".

استطاع الطيب صالح أن يقدم تلك التعقيدات في عمل جميل ومهضوم ومشوق لا يمله القارئ ولو قرأه عشرات المرات، خاصة وأنه إستطاع أن يدس بين صفحات الرواية - التى تدور أهم أحداثها في بريطانيا - العديد من المشاهد التي تعكس صور الحياة اليومية البسيطة لسكان إحدى قرى شمال السودان ، بالاضافة لمشاهد تلك الرحلات التي كانت تتم موسمياً بين العاصمة وشمال السودان ، والتي صورت ببراعة كاملة باستخدام أبلغ أساليب الوصف والتشبيه ، وتلك إحدى الجوانب التي أجاد فيها الطيب صالح تماماً لدرجة أن البعض يصفه برائد الواقعية السحرية في الرواية العربية ، فإسلوب الوصف كان مدهشاً عنده ، ينقل تفاصيل الأوجه والأمكنة ببراعة ، فهو يقول على لسان الرواي حين يصف مصطفى سعيد :

" دققت النظر في وجهه ، وهو مطرق ، إنه رجل وسيم دون شك ، جبهته رحبة ، وحاجباه متباعدان ، يقومان أهلة فوق عينيه ، ورأسه بشعره الغزير الأشيب متناسق تماماً مع رقبته وكتفيه ، وأنفه حاد منخاراه مليئان بالشعر. ولما رفع وجهه أثناء الحديث ، نظرت إلى فمه وعينيه ، فأحسست بالمزيج الغريب من القوة والضعف في وجه أقرب إلى الجمال منه إلى الوسامة . ويتحدث بهدوء ، لكن صوته واضح قاطع . حين يسكن وجهه . وحين يضحك يغلب الضعف على القوة . ونظرت إلى ذراعيه ، فكانتا قويتين ، عروقها نافرة ، لكن أصابعه كانت طويلة رشيقة ، حين يصل النظر إليهما بعد تأمل الذراع واليد ، تحس بغتة كأنك انحدرت من الجبل إلى الوادي" .

الوسامة التي يصف بها الراوي بطله ربما هي التي جعلته يحول غرفة نومه الي ساحة حرب في رحلة بحثه عن ثاره من الغرب المستعمر مستغلاً ذكاءه الحاد في نصب شراكه المحكمة للايقاع بالأوربيات المفتونات بكل ما غريب عنهن ، ابتدءاً بقروية ضاحية "هل" شيلا غرينود التي أغراها بالهدايا والكلام المعسول والنظرة التي ترى الشيء ولا تخطئه ، كانت تقول له :

" ما أروع لونك الأسود ، لون السحر والغموض والأعمال الفاضحة ".

شيلا، التي إنتحرت دون معرفة سبب انتحارها، يقف مصطفى سعيد امام المحكمة ليواجه تساؤل هيئتها :

لماذا انتحرت شيلا غرينود يا مصطفى سعيد؟

ثم ايزابيلا سيمور التي قضت أحد عشر عاما في حياة زوجية سعيدة ، تذهب للكنيسة في صباح كل أحد بإنتظام، وتساهم في جمعيات البر، قابلته وأكتشفت في أعماقها مناطق مظلمة كانت مغلقة من قبل.

تقول له:

"هل تدري أن أمي اسبانية؟ "

يجيبها بذكاء:

"هذا اذن يفسر كل شئ ، يفسر لقاءنا صدفة، وتفاهمنا تلقائياً، كأننا تعارفنا منذ قرون ، لابد أن جدي كان جندياً في جيش طارق بن زياد . ولابد أنه قابل جدتك وهي تجني العنب في بستان اشبيليه، ولابد أنه أحبها من أول نظرة، وهي أيضاً أحبته ، وعاش معها فترة ثم تركها وذهب الي افريقيا وهناك تزوج ، وخرجت أنا من سلالته في افريقيا، وأنت جئتي من سلالته في اسبانيا".

يسعدها الكلام فتقول :

"يا لك من شيطان".

وبالرغم من كل شئ تموت و تترك له رسالة تقول فيها :

"إذا كان في السماء إله ، فأنا متأكدة أنه سينظر بعطف إلى طيش إمراة مسكينة لم تستطع أن تمنع السعادة من دخول قلبها ، ولو كان في ذلك إخلال بالعرف وجرح لكبرياء الزوج . ليسامحني الله ويمنحك من السعادة ما منحتني."

ودارسة اللغات الشرقية آن همند، بوجهها الذكي المرح وعيناها اللتان كانتا تبرقان بحب الإستطلاع ، جذبها اليه محاضرة القاها عن شعر ابي نواس.

تقول له، انها تري في عينيه لمح السراب في الصحاري الحارة ، وتسمع في صوته صرخات الوحوش الكاسرة في الغابات .

ويقول لها، أنه يرى في زرقة عينيها بحور الشمال البعيدة التي ليس لها سواحل.

يدخلها لبيته في لندن وكر الأكاذيب الفادحة ، تركع وتقبل قدمية وتقول:

"انت مصطفى مولاي وسيدي، وانا سوسن جاريتك " هكذا كل واحد يختار دوره في صمت.

وجدوها في شقتها ميتة إنتحاراً بالغاز ورسالة تقول فيها :

" مستر سعيد، لعنة الله عليك".

بكل مهارة يحرك الطيب صالح بطله غريب التصرفات داخل المسرح المعقد للرواية بمرونة وخفة عاليتين ، فهو برغم رسمه لشخصية معقدة لتلعب دور البطولة في روايته إلا أنه أضفى عليها من السمات ما جعلت أمر إندماجه في المجتمع الغربي غاية في السهولة ، سمات جعلت الإنجليزي الأسود - كما كان يسمى - يعيش كما يعيش الأوربيون تماماً. فبالإضافة لأنه كان ذكياً فقد أجاد الانجليزية بطلاقة :

" فقد كان يعوج فمه ، ويمط شفتيه ، وتخرج الكلمات من فمه كما تخرج من أفواه أهلها "

يواصل البطل الغامض غزاوته الشهوانية بنجاح، لم يكن الأمر يحتاج سوى ذكاء كان يملكه وقصص خيالية عن أفريقيا ، فالأوربيات كن يصدقن أي شيء ، يستغل إقبالهن على الحياة بمرح وحب الإستطلاع وهو كما يقول عن نفسه :

"صحراء من الظمأ، متاهة الرغائب الجنونية ".

تسأله إحداهن عن بلده ، فيروي لها حكايات ملفقة عن صحاري ذهبية الرمال، وادغال تتصايح فيها حيوانات لا وجود لها.

"قلت لها أن شوارع عاصمة بلادي تعج بالأفيال والأسود ، وتزحف عليها التماسيح عند القيلولة ".

ويقول لآخرى :

" أجل، بيتنا على ضفة النيل تماماً بحيث أنني كنت إذا إستيقظت على فراشي ليلاً ، أخرج يدي من النافذة وأداعب ماء النيل حتى يغلبني النوم"

يفعل كل شئ حتى يدخل المراة في فراشة ، ثم يسير إلى صيد آخر، كان الأمريتم في غاية السهولة الى أن وقع في عالم جين موريس:

"كنت في الخامسة والعشرين حين لقيتها ، وفي حفل في تشيلسي فتحت الباب وتريثت، وبدت للعين تحت ضوء المصباح الباهت كأنها سراب لماء في صحراء ".

جين الذي ظل يطاردها لثلاث سنين وهو الذي لم يكن يحتاج لأكثر من لقاء واحد ليوقع فتاة في غرامه تقول له :

"انت بشع لم أرى في حياتي وجهاً بشعاً كوجهك ".

ويقول :

" كنت أجدها في كل حفل أذهب إليه ، كأنها تتعمد أن تكون حيث أكون لتهينني . أردت أن أراقصها فقالت لي : لن أرقص معك ولو كنت الرجل الوحيد في العالم . صفعتها على خدها فركلتني بساقها وعضتني في ذراعي بأسنان كأنها أسنان لبوة ".

يطاردها الى أن يتزوجها فتحيل فراشه الى قطعة من الجحيم ، كان صياداً فأصبح فريسة لها ، يشك في أنها تخونه وتعايره بأنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً لو خانته. تستمر معاناته معها إلى أن يضع لها حداً في ليلة جليدية باردة :

"ها هي ذي سفني تبحر نحو شواطئ الهلاك ، ملت عليها وقبلتها ، وضعت حد الخنجر بين نهديها ، وشبكت هي رجليها حول ظهري .. ضغطت ببطء .. ببطء . فتحت عينيها .. أي نشوة في

هذه العيون .. وبدت لي أجمل من كل شيء في الوجود .. قالت بألم : يا حبيبي .. ظننت أنك لن تفعل هذا أبداً .. كدت أيأس منك . وضغطت الخنجر بصدري حتى غاب كله في صدرها بين النهدين . وأحسست بدمها الحار يتفجر من صدرها .. وأخذت أدعك صدرها بصدري وهي تصرخ متوسلة : تعال معي . تعال . لا تدعني أذهب وحدي "

يقود الراوي بطل قصته الى محاكمة كانت ساحة حرب آخرى ولكن بالنسبة لمصطفي سعيد فقد كان احساسه بالمحاكمة مختلفاً :

"وأنا أحس تجاههم بنوع من التفوق ، فالإحتفال مقام أصلاً بسببي ، وأنا فوق كل شيء مستعمر ، إنني الدخيل الذي يجب أن يُبت في أمره .. حين جلبوا لكتشنر محمود ود أحمد وهو يرسف في الأغلال بعد أن هزمه في موقعة أتبرا ، قال له :

" لماذا جئت إلى بلدي لتخرب وتنهب ؟"

الدخيل هو الذي قال ذلك لصاحب الأرض ، وصاحب الأرض طأطأ رأسه ولم يقل شيئاً . فليكن أيضاً ذلك شأني معهم . إنني أسمع في هذه المحكمة صليل سيوف الرومان في قرطاجة ، وقعقعة سنابك خيل النبى وهي تطأ أرض القدس . البواخر مخرت عرض النيل أول مرة تحمل المدافع لا الخبز ، وسكك الحديد أنشئت أصلاً لنقل الجنود .. وقد أنشأوا المدارس ليعلمونا كيف نقول ((نعم)) بلغتهم ".

يثأر منهم ولكنه يرحل ليعيش بعيداً عن عوالمه في قرية نائية ، تكفيراً عن أكذوبة حياته الغريبة ، يرحل ويترك غموضاً أكبر ، حتى حسنة التي تزوجها بعد أن خلع جلباب غربته قتلت نفسها، كأن ذلك المرض الذي يصيب كل من تدخل بيته قد إنتقل معه.

بطل الرواية كان ذكياً ومثقفاً بمقياس زمانه، ولكنه أكذوبة كما يقول هو في متن الرواية، فلا وجود لمصطفي سعيد ولكن يوجد بطل واحد هو بنفس عبقريته وربما أكثر، المحرك للأحداث والموجه لشخوص الرواية هو الطيب صالح كاتب الرواية والتي لو لم يكتب غيرها لاحتفظ بلقب إستحقه عن جدارة ، عبقري الرواية العربية .

تأملات في المحبة عند الطيب صالح

محمد النوراني :

إن الطريق الى الله يمر الى الداخل ، يقول المسيحيون الله محبة ويقول أهل العرفان : " الما عندو محبة ما عندو الحبة "

ومن هذه المعاني ينسج الطيب صالح عوالمه المغرقة في العرفان سواء على مستوى مسرحة الأحداث و بنيتها السرديّة أو على مستوى حوارات الشخصيات التي يدفع معظمها حالة من العرفان والخشوع عند التعامل مع الغيب والما وراء دون أن يؤدي ذلك الي الإنزلاق في مسار الرهبنة أو التبتل ودون أن يفرض نمطاً من التدين على الشخوص قد يتنافى مع متطلبات البيئة .

حالات عرفانية كانت تأخذنى وأنا أطالع سيرة " الحنين " في " عرس الزين " وتجعلني أعيد التأمل في عمل أهل السلوك إذ يسلك أهل العرفان إما مسار الخلود للنفس و التجرد من الطين الى حقيقة " ونفخنا فيه من روحنا " فما كف المسيح التي تبرئ الأكمه والأبرص إلا حلول بعض من محبة نافخ الروح في الأزل ، وما شكوى الغزال بين يدي المعصوم الا نفحة من " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " . وأنا أطالع سيرة العاصي "سيف الدين" قبل وبعد مقولة الحنين في عرس الزين " ربنا يجعل فيكم البركة " جعلتني أؤقن أن الغراب الذي يواري سوءة أخيه كان يواري الخطيئة الأولى الى النسيان والفناء ؛ فالخطيئة تحول بين الروح والمحبة كما يحول الجدار عن الشمس ، ولذلك كان إنتقال سيف الدين يبدأ بالمحبة ثم تتبعها الكشوفات و والفتوحات التي هي رياضة الروح كما عند إبن عربي والجنيد وسواهم من العارفين .

ونجد نموذج آخر يضج بالعرفانيات ..عند ذلك الذي إنخرط في التجارة والعمل دون أن يفارق مسبحته أو يدخل حالة الخلوة النفسية تجاه المجتمع فتجد جلساتهم أمام دكان شيخ علي

فهو مثال لأهل العرفان الذي منهم من إتسع قالب الطين فيه للمحبات العظيمة فمشى بين القوالب الفانية يواري سوءاته و سوءاتهم .. سوءة الجوع بالعمل وسوءة النسيان بالعلم ، وهو اذ ينخرط بعلمه وعمله و تجارته و أهله ، لا يغفل حقيقة الطين الزائل والوجود العارض الذي لا محالة الى الفناء فلا حقيقة سوى المحبة .

ثم نموذج الزين الذي يظهر تقديسه لشيخ الحنين من جهة ويظهر عطفاً على مهمشي القرية كعثمانة الطرشاء وبخيت المشوه وموسى الأعرج ، وهي بلاشك حالة العارف الذي يرى ما لا يراه الاخرون و يملك من البصيرة ما يمكنه من فهم كنه الأشياء وجواهر البشر . وهو ما وصفه الأستاذ أبوبكر الجنيد في قصيدته التي يقول في مطلعها :

" يا ناس الحلة ..انا مقتول في حوش أهل الله "

الى أن يقول :

ستنال أجملهن يا المبروك "

قال لي الحنين وتمتمت شفتاه بالدعوات

كان حديقة مخضرَّة فينانة البركات

كان صديق أشواقي ..

ولياً ...

مات يجذبه الغياب إلى الغياب

كان الحنين دمي فغاب ...

كان الحنين أبي فغاب .

إن الطيب صالح صاحب تربية صوفية عميقة إنعكست في شهادات من عاشروه ، كما إن عكست علي دقة فهمه للدوافع العرفانية التي تحكم سلوك المحبين .

مؤلفات عن المريود

<u>يس المك :</u>

أكثر من ثلاثين عاماً استأثر فيها الروائي المتميز الطيب صالح بإهتمام العالم بمنتجه الأدبي، وقد بايعه الروائيون العرب في مؤتمر أُقيم في القاهرة أميراً للرواية العربية المعاصرة، وأشادوا به أيما إشادة. فصدرت في شأنه عشرات الدراسات والبحوث التي أكَّدت خصوصية تناوله وفرادة سرده، فليس غريباً إذن أن يتناول أدبه وعالمه الخاص والعام هذا الكم الهائل من المؤلفات، إبتداءًا بالرسائل العلمية في الجامعات، مروراً بالكتب النقدية لعظماء النقاد في العالم العربي وغير العربي، والمقالات والمنشورات. وفي هذا المقال سنعرض لبعض تلك المؤلفات.

- (الطيب صالح .. سيرة كاتب ونص)

صدر عن دار كمبردج للنشر بريطانيا، كتاب من القطع المتوسط، يقع في (٤٣٠) صفحة، ألفه الأكاديمي والناقد السوداني أحمد محمد البدوي، في يناير٢٠٠٨م. ومنهج أحمد البدوي لا يدور حول أعمال الطيب ولكنه يستعرضها في بساطة و ترتيب تاريخي إلى القارئ، إذ يركز على استجلاء علاقة التداخل الحميم بين إنتاجه الأدبي و سيرته الذاتية ، و كأنه يريد أن يقول بأن حياته هي مصدر عالمه الأدبي. الفصل الأول من الكتاب يعرض فجر الحياة الشخصية للأديب الراحل ومراحل طفولته وصباه وشبابه، فيما يتناول الفصل الثاني مساره المهني في غربته، ونوعية الأشخاص الذين إرتبط بهم من زملاء في العمل وجيران وأصدقاء. ويحاول الكتاب اكتشاف الحقيقة وراء المعاني المجازية التي عبر عنها الطيب صالح في كتاباته، مع إلقاء المزيد من الضوء على مرتكزات الحياة الشخصية للأديب باعتبارها لب فطانته وأساس إبداعه.
حيث خصص الفصل الثالث للحديث عن قصة "نخلة على الجدول" التي كتبها الأديب سنة ١٩٥٣م بلندن وهو ما يزال قريب عهد بالسودان، بينما يسهب في الفصل الرابع في الحديث

عن روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" قبل أن ينتقل للفصل الخامس الذي تناول فيه بالتحليل حواراً للطيب صالح مع ناقد عراقي أكد فيه أنه فرغ من كتابة الثلث الأخير من رواية "عرس الزين" في قرية بجنوب فرنسا سنة ١٩٦٢م. لقد قرأت هذا الكتاب قبل شهرين، وما أن فرغتُ منه حتى أقنعني تماماً أنه لا يمكن تجاوزه في معرض الحديث عن الطيب صالح.

- (الطيب صالح .. دراسات نقدية)

بمشاركة (٢٣) كاتباً من السودان والوطن العربي وبلدان العالم الفسيح صدر كتاب الطيب صالح : دراسات نقدية من تحرير الناقد والباحث السوداني الدكتور حسن أبشر الطيب، عن دار رياض الريس للكتب والنشر ببيروت - لندن ٢٠٠٢م وحوى الكتاب نحو (٤٣١) من الصفحات ذات القطع الكبير. في القسم الأول (شهادات ومقاربات) كتب وزير الخارجية المغربي محمد بن عيسى كلمة آسرة حملت عنوان (سيد الطيب : الحشوم الوقور)، فيما كتب التشكيلي السوداني الرائد إبراهيم الصلحي كلمة بعنوان : (الصديق الكاتب، نبع الصفاء والمودة والحكمة) تراوحت بين النقد الأدبي والإخوانيات والذكريات، بينما كتب الإذاعي السوداني رفيق غربة الطيب صالح اللندنية صلاح احمد محمد صالح (صديق الطيب)، وكتب رفيقهما الإذاعي والكاتب السوداني عبدالرحيم الرفاعي (أكرم الناس)، واعتبر الشاعر والدبلوماسي السوداني البارز سيد أحمد الحردلو أن "اسم الطيب صالح صار وطنا"، في الوقت الذي كتب فيه قبيل رحيله الشاعر العراقي بلند الحيدري كلمة في حق الطيب صالح (في صحبة الطيب الإنسان).. وحمل الكتاب كلمة في رسالة وقعها التشكيلي السوداني رائد الحروفية العربية عثمان وقيع الله بعنوان "إلى أبي زينب" وختم هذا القسم بتوقيع عبدالمنعم سليم "اللقاء الأول مع الطيب صالح" وعبدالواحد عبدالله يوسف (الطيب صالح: الإنسان النبيل العاشق لوطنه).في القسم الثاني (حوارات) نقرأ: (هكذا حدثني الطيب صالح) في حوار صحافي أجراه الصحافي بشير القمري حمل عنوان (الإنسان يحمل في داخله معلمه) فضلا عن تلخيص لحوار أجراه مركز تلفزيون الشرق الأوسط (mbc) مع الطيب صالح في تكريمه بمناسبة بلوغه السبعين من العمر. وحول الكتاب بعض أعذب ذكريات أديب السودان الكبير الطيب صالح في حديث عامر بالشجن عن رفاق غربته اللندنية حمل عنوان "العالم المفتوح" في تذكر " أكرم صالح" وجاء في باب "لمحات من السيرة الذاتية".في قسم "دراسات نقدية" نقرأ الأثر الديني الصوفي في أعمال الطيب صالح للناقد السوداني البارز رئيس تحرير مجلة

"الدوحة" القطرية الأسبق الدكتور محمد إبراهيم الشوش و"الطيب صالح روائيا وشاعرا مبدعا" لمحرر الكتاب الناقد وخبير العلوم الإدارية الدكتور حسن ابشر الطيب و"فتنة الطيب صالح بابي الطيب المتني " للشاعروالدبلوماسي السوداني محمد المكي إبراهيم، وجاءت مساهمة الشاعر المصري الكبير احمد عبدالمعطي حجازي في كلمة حول رائعة الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" فيما كتب الناقد المصري البارز رجاء النقاش مقالة متميزة بعنوان "قصيدة من العشق والمحبة". وأسهم الناقد الانجليزي الذي قدم روائع الطيب صالح لقراء الانجليزية روجر الن بمقالة في "عرس الزين" التراث والتعبير".. فيما كتب الأديب السوداني الشاب طارق الطيب "الاغتراب عند الطيب صالح" وأحمد الأمين البشير أسهم بمقالة عنوانها "الطيب.. وصلاح وهوى عزة" ومحمد صالح خضر كتب "رجل كرمكول" و"البحث عن الأمان في أدب الطيب صالح" للكاتب عبدالوهاب موسى، و"تجديد الجنس الفلكلوري" للقاص والباحث السوداني الدكتور محمد المهدي بشرى. وفي القسم الخامس نصوص مختارة من كتابات الطيب صالح فيما حوي القسم الأخير ببليوغرافيا الروائي الطيب صالح أعدها مركز قسم المعلومات، وهو المركز الوحيد المختص بالمعلومات الببليوغرافية في السودان ويقوم على إدارته اختصاصي المكتبات والمعلومات الدكتور قاسم عثمان نور.

وتشير"الرياض" إلى أن أعمال الأديب السوداني البارز الطيب صالح حظيت بالعرض والتحليل والدراسة في الدوائر الأدبية العربية والأعجمية، وشملت أعدادا وافرة من الكتب والمقالات التي نشرت في الدوريات والحوليات، فضلاً عن الدراسات الأكاديمية الجامعية لنيل درجتي الماجستير والدكتوراه بأكثر من خمس لغات حية. إن كتاب الطيب صالح: دراسات نقدية، يعد تحفة أدبية رائعة جمعت بين دفتيها أجناس متنوعة من التأليف، تعبرعن رغبة صادقة في الاحتفاء بهذا الروائي المبدع الجدير بالاحتفاء والتقدير.. وذلك لما تميز به عمله من قوة ومتانة ورصانة تجلت عبر بصماته التي وضعها على بناء الرواية شكلا ومضمونا، فملأ الدنيا وشغل الناس، وأضحى رمزاً ومعلماً يقتفي أثره كل المبدعين الذين ينشدون التميز في العمل الروائي. ولكل ذلك يحتل هذا الكتاب مرتبة رفيعة في ما تم كتابته عن أديبنا الراحل.

- (على الدرب .. مع الطيب صالح، ملامح من السيرة الذاتية)

صدر عن "توب للخدمات والإستثمار" بالإشتراك مع مركز الدراسات السودانية بالقاهرة، ينقسم الكتاب إلى سبعة فصول لعل أفضلها الأول والثاني، فهما ينيران مقطعاً من حياة

البيئة الشمالية حيث يتشكل المزيج العرقي في المنحنى الأعلى للنيل السوداني، بتخالط القبائل العربية والإفريقية، ولعلّ تلك الوحدة هي بحدّ ذاتها الملمح الانثربولوجي الأبرز. تلك كانت واحدة من أهم استلهامات الطيب صالح في أعماله الروائية التي عرفتنا بطبيعة الناس وعاداتهم وأمزجتهم ولغة التخاطب بينهم، وما يمكن أن نسميه صلة الألفة والمودة التي تطبع شخصية السوداني أينما كان... وهذه الطبيعة السودانيّة تبدو فيها الحروب والصراعات السياسية العنيفة على شيء من الغرابة، لا تتفق مع تلك الشخصية المتميّزة ببساطتها وابتعادها عن التعصب. فالكتاب يكشف في جانب من جوانبه السودان باعتباره سوسيولوجيا وفولكلور وسياسة وطبيعة جغرافية. ويلاحظ القارئ مدى الإعجاب والمحبة التي يكنها المؤلّف لابن بلده، كما أن الحنين والمحبة يتدفقان بين ثنايا الكتاب، ويحددان طريقة ترتيب طلحة جبريل لمادة الحوار مع الطيب صالح، وطبيعة أسئلته التي تربط الماضي بالحاضر وتستعيد التاريخ في تداخلاته الخصبة. حيث يعرض فيه المؤلف لأحوال أسرة الأديب قبل مولده، ثم يتتبعه خطوة بخطوة خلال مراحل حياته، فيوثق لأدق التفاصيل. ويتابع طلحة جبريل رحلة الطيب صالح من السودان إلى لندن التي وصلها في شتاء العام ١٩٥٣ للعمل في الإذاعة البريطانية ومن لندن يذهب إلى الدوحة ليشغل منصباً مرموقاً في وزارة الإعلام القطرية، ثم يصبح مستشاراً لمنظمة اليونسكو، كل تلك المناصب مكنت الطيب صالح من أن يعيش برخاء من دون أن يصادف المتاعب التي يصادفها الأديب عادة في مهنة لا توفر لكتابها العيش الكريم. والكتاب بما حوى يمثل أفضل ترجمة –حتى الآن- تمت طباعتها عن الأديب الراحل.

- (العالم الروائي للطيب صالح)

وهو بحث أكاديمي، صدر عن دار قرطاس للنشر في الكويت، لمؤلفه "فهد الهندال". يركز في كتابه على جزئية سردية هي تقنية السارد وأهميتها في العمل السردي عامة والعمل الروائي خاصة، ولذلك فقد قسم كتابه إلى مقدمة يليها الفصل الأول الذي تضمن مفهوم السارد في نظرية السرد، حيث انطوى على مبحثين تنظيريين هما السرد والسارد، وقبل اجتياز عتبة التنظير والدخول إلى رحاب العالم الروائي للطيب صالح.. وما يشكر للكاتب والكتاب هو هذا الرصد الدقيق للمنجز السردي العالمي والعربي على حد سواء وبما له صلة بنظرية السرد المعاصرة. وفي الفصل الثاني من الكتاب وهو الذي ورد تحت عنوان (سارد القص في العالم

الروائي للطيب صالح) يدشن الباحث هذا العالم المدهش بمبحث تحت عنوان (السارد المشارك في موسم الهجرة الى الشمال). ويأتي الفصل الثالث من هذا الكتاب تحت عنوان «من سارد القص إلى كاتب النص» ولكي يسوغ الباحث فهد الهندال هذه العودة إلى التنظير السردي عامة فإنه يشير إلى أن فصله الثالث يحاول أن يربط بين سارد القص وكاتب النص في العالم الروائي للطيب صالح بعد أن خضعت تقنية السرد في الفصل الثاني للجانب التطبيقي، وهو يهدف من تخصيص هذا الفصل الى كشف رؤية الكاتب الخارجية للعالم ومن خلال رواياته الثلاث (عرس الزين/بندرشاه/موسم الهجرة). ويتجلى النسق الأكاديمي في هذا الكتاب عبر أكثر من مظهرومن ذلك أن الأحكام النقدية هادئة وموضوعية ومستقاة من استقراء صحيح لنتاج الطيب صالح. من ذلك أيضا أن الباحث ختم كتابه بنتائج وتوصلات ورد فيها: أن السارد ما هو إلا شكل يحتال فيه الكاتب لتقديم وجهة نظره في النص، ويرسم من خلاله ملامح عالمه الروائي ليصل معه إلى رؤيته للعالم المحيط به، ما يعبرعن حضور الكاتب وتدخله في النص، حتى وان ادعى حياديته. ومع ذلك فإنه لا يمكن القول: إن الكاتب هو السارد، فالأول شخصية إنسانية ومخترع العالم الروائي، والثاني تقنية سردية وأداة للكاتب في السرد وتوصيل الخطاب، ولعل حضور الطيب صالح الصريح في رواياته من خلال أدلة ذكرت في غضون هذا الكتاب مما لا جدال فيه لاسيما انه عرض متنوع ما بين السارد العليم والسارد المشارك وتعدد الساردين وهو ما يشكل قوام الفصل الثاني من هذا الكتاب الذي يستحق الدراسة عن جدارة.

- (تحولات الشوق في موسم الهجرة إلى الشمال)

أما عن أعمال الطيب صالح فسأبرز واحدة من أهم الدراسات عن رائعته "موسم الهجرة إلى الشمال"، وهي دراسة نقدية أجراها الدكتور محمد شاهين، صدرت ببيروت سنة ١٩٩٣م، وهي من الدراسات التي ركزت علي أفكار ومضامين العمل وهي تحاور عدداً من الأعمال الروائية الأوروبية، التي تعد علامات في تاريخ الرواية، ولا يعوّل الناقد علي ثبوت إطلاع الطيب علي تلك الروايات، المهم أنه وصل في موسم الهجرة إلي درجة من الإبداع تجعل أية أصول ومصادر مجرد روافد للإبداع بطريقة أو بأخري. ولقد خلَّق الناقد قراءات موازية للنص مع روايات "رحلة إلي الهند" لفورستر و"مرتفعات وذرنج "لإميلي برونتي و"القرمزي والأسود" لستندال، و"قلب الظلام" لكونراد و"عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم. ومع ذلك وجه عدد من

النقاد نقدهم إلى هذه الدراسة بوصفها تحتاج المزيد من البحوث المكملة، على أن ذلك لا يؤثر في أهميتها وأصالة النقد الذي اتبعه د. محمد شاهين.

هذه قطرات من بحر التأليف عن الطيب صالح، والذي ما زال مده عنيفاً لا يهدأ، وهذا إن دل على شئ فإنما يؤكِّد هذه العبقرية الفذة لأديبنا الراحل، ومع ذلك أتمنى ألا يكون هذا التعظيم حاجزاً ومانعاً من ظهور أديب يفوق الطيب صالح، فالأديب الكامل لا وجود له، ولكن الأفذاذ قليلون، كما هو مأثور.

تكوين في شأن الجمال مسرحاً من طِيب الطيب صالح

هيثم الطيب :

* وهذا التكوين :-

فكرة..نص..شخصيات

* النص:-

التراث ليس بقايا ثقافة الماضي،بل هو تمام وجمال ثقافة الحاضر..

* الرواية لواقعيتها وتعبيرها عن الحاضر لا يمكنها الإبتعاد عن التراث لأن حركة حياتنا ثلاثية الأبعاد (ماضي،حاضر،مستقبل)..

* في روايات الطيب صالح،الشخصية التأريخية،الشخصية الصوفية،الشخصية الأسطورية،الشخصية العصرية ذات الأبعاد التراثية..

* الطيب صالح يصطفي أفكار ذات أصل تراثي،يستخدمها في شكل بنيات فكرية صغيرة تفتح كل الأبواب لفكرة الرواية الأساسية،في رواية (ضو البيت)استعان بالفكرة الإفريقية (الغريب الحكيم) التي سادت في تاريخ الممالك الإسلامية في دارفور فرسم شخصية ضو البيت :-

يجئ من مكان مجهول

يعثرون عليه جريحاً جائعاً

يحمل ملامحاً تختلف كثيراً عن ملامحهم

يكسب ودهم ويصاهرهم

يُحدث آثاراً بعيدة المدى في مجتمع القرية..

* وظَّف الطيب صالح نصوصاً تراثية منتمية لفكرة واحدة،وأيضاً قام بتوظيف نصاً واحداً محدداً تفاعل مع رؤيته ومنطلقاته في روايته (مريود)،والتي أضاءت في الجزء الثالث منها أسلوباً ارتكز على كتابة الأدب الشعبي المتوارث (العامية السودانية)..

* رواية (عرس الزين) بيئة حكائية لواقع وتراث في قرية سودانية،حلمٌ وقناعات المجتمع بدعوات المتصوفة ونبوءاتهم،هنا توظيف خاص للواقع في امتداده التاريخي،وكذا في رواية (ضو البيت)..

* عند الطيب صالح،هنالك إستدعاء للشخصية التاريخية باسم أو فعل أو قول..

* في رواية (عرس الزين) توظيف ملمح بطولي خارق للشخصية الصوفية،مافعله الطيب صالح في شخصية (الحنين)،منحه قوة خارقة غير مرئية فاقت قوة (الزين)،استطاع بعبارة فقط أن يفعل ما عجزت عنه طاقة ستة من الرجال،(الزين..المبروك..الله يرضي عليك)،فسيطر عليه وارتفع عن صدر سيف الدين الذي كاد أن يموت لولا بركة (الحنين)،غير بعيد من ذاك نبوءة (الحنين) بأن الزين سيتزوج أفضل بنات القرية،(الزين) نفسه يشكل البعد التراثي في اللاممكن،تجسيد لعناصر فيزيولوجية وذهنية،توصيف أنه وليٌ من أولياء الله الصالحين..

* لم يضع الطيب صالح أسطورة من لاشيء،عاش واقعه،ونقله،يلجأ للأسطورة من باب بناء التاريخ الشفاهي للشخصية الروائية،الإضاءات التراثية التي تكشف إتجاهات الشخصيات (بندر شاه، حول علاقة بلال بشيخه نصرالله ود حبيب) في رواية (بندر شاه).

* التراث وتوظيفه تطور للرواية العربية،أبعدها عن دائرة التقليد للروايات الغربية،بإتجاه نوعية البنية التراثية نصية كانت أم فكرية،ونوعية التراث نفسه المستفاد منه في طقس الرواية (عقدياً أم سلطوياً أم قومياً)..

* هذا التكوين،رواية في شأن نص وشخصيات،نص للإنسانية،شخصيات تفتح إتجاهين من الهدوء والصخب،نقرأ التاريخ والناس،المرئي وغير المرئي،كل شخصية تشكل رواية لوحدها،في حركتها قراءة لملمح المجتمع..

* الفُرجة ..إيقاع الحياة،تفاصيلها ،تعقيداتها،إتجاهاتها..

* هي صخب الحياة تلك،لحنها،غناؤها،إيقاعاتها الصوفية..

* هي الحياة التي كانت،هي هنا نصيغها بتكوين،لتكون معنا،ونحن فيها،نستغرق فيها،هو تكوين لنستغرق في تلك الحياة..

* روايات الطيب صالح،حياة تحتاج لتكوين مثل هذا،يصنع مسرحاً برؤية (الحياة)،منطلقاً لمسرحاً إنسانياً لصياغة فن الإستغراق في طِيب الطيب صالح ..

* كل رواياته فيها (المسرح موثوقاً به،يمكن أن يكون المسرح طيباً وصالحاً،نحتاج لمسرح يقول لنا،إن الحياة التي نسجها الطيب صالح في كل رواياته هي في أصلها،عرض مسرحي حقيقي،المسرح والرواية (متواثقان عند الطيب صالح)،يرسم الحياة ليجعل المتخيل حركة في خشبة مسرح،الرواية عندما تكون مسرحاً متحركاً تمنح المتخيلات (الضوء الحقيقي)،وليس كل الروائيين يستطيعون هذا الفعل الفاعل في الحياة الروائية.الرواية عند الطيب صالح (حياة).

(الطيب صالح .. وأصيلة)

<u>نظام الدين :</u>

الشوارع هناك تتذكره ، تقلب صفحات حوائطها بحثاً عنه في لوحة ما وتبسم ريشة .. تتنسم عطره الذي أحبت ، كآثار الجميع التي أحبت آثاره أينما حل وأرتحل فتابعته بقلوب صادقة معلنة عن مابينها وبينه على ملأ التاريخ والمستقبل ..

أصيلة ، فتاة المغرب الجميلة ، فخره وإكليل تاجه ، تستقبل ضيوفه بكرم مغاربي نبيل لتعرض على عينها ماجاب في خاطر هذه البلاد العظيمة على مدى سنون طوال من الحراك نحو المجد لعلياء أصابتها نواياها نحوه ، فإن بلغت عندها لم تبلغ بعد ، ولا يزال المسير نحوه تحمل رايته الأجيال خلف الأجيال ..

وفي أصيلة ، تلك الساحرة الفاتنة ، الأجيال تنقل للأجيال قصة تلك اللوحات وتبسم الريش ، وسر ذلك العطر وعظمة الآثار ، تحكي لها قصة أحدهم .. قطع الصحراء الكبرى غربا ، تحمله ريح الحلم نحوهم .. فتلاقح كنهه مع نسيم البحر فيها فأنجبا مايراه الجميع ..

يحكي الجميع للجميع في كل يوم عنه ، الأسمر الوسيم الهادئ ، الذي لم يطأ أرض اصيلة من هو أحق بالحكي منه إلاه .. هو ذاته الذي حمل أصيلة على كف حلمه جاعلاً منها ماتضعه الآن من فخار على تاج المغرب العربي كله ..

أصيلة حيث تلتقي عظمة اليابسة بجلال البحر في أجمل مايكونا .. أصيلة ، حيث العالم يبدو أنظف و ألطف وأرق مما عليه في بقعة الأرض .... أصيلة بوسامتها وكرمها وجرأتها واتقاد فكرها .. ترسم معالم الفتى العربي التي إفتخر بها تاريخا ما ..

ترقد ذكرى ذلك الرجل على أرصفة المدينة رقاد التاريخ على أسطر المؤرخين .. فالرجل هو من صنع ذلك الرصيف بهيئته وإن لم يكن قد رفع حجراً أو وضع مزهراً .. ذكراه تطل من ألوان

الحوائط كإطلالة أصيلة على عالم يسبقها بمئات السنين تقدماً وتسبقه بآلاف السنين جمالاً وحضارة ، فالرجل هو من رسم تلك اللوحات وإن لم يكن قد حمل فرشاة أو رسم خط ..

ذلك الأسمر الذي تحكي أصيلة عنه دوماً ،، ولاتحكي عنه إلا وتسيل دموعها حباً وإمتناناً .. أتاها في يوم ما ، حضور الأنبياء والمرسلين ، برسالة تخصه وحدة وتخصها .. هو لم يكن يعرفها بالقدر الذي تعرفه به .. لكنه وجد فيها مايبلغه مقصده في الحياة على سبيل كتابة أخرى بأحرف عطاء مختلفة هذه المرة ..

في أصيلة تشكل الحوائط أجزاءاً صغيرة جداً من لوحات عملاقة ، تتراص قرب بعضها ، وتدخل الأبواب والمناور في اللوحة دخولاً مقصود .. هناك الرصيف كرصيف الجنة تماماً .. النظام والترتيب الملائكيين يقولا ذلك ، فكل شئ في مكانه تماماً ..

يتحرك القارب نحو أصيلة .. في رحلة يومية لقاصدي الفن و الجمال والإرث الثقافي .. وهنا يجوبون المدينة الصغيرة أو قل القطعة التذكارية الموضوعة على متحف المغرب المطل على النيل ..

فندق أصيلة .. بأناقته .. حيث يمكث من سحرته اللوحة وقرر البقاء قليلاً .. تتبدل الأيادي على مفاتيح الغرف فيه .. يوم وآخر ، ويرحل الساكن لتفتح لساكن جديد ..

ولكن في (رف) المفاتيح ، هناك مفتاح وجهاز تحكم في التلفاز لا يتحركا أبدا .. لم يمسهما أحد إلا الصبي الذي ينظف المكان .. ولن يمسهما .. هذا مايقوله صاحب الفندق .. وجميع من يعمل وجميع من يسكن أصيلة .. ليس هذا فقط بل ذلك الركن المكون من أربع طاولات صغيرة وأريكة فخيمة ، أيضا لا أحد يجلس عليهم ..

وفي دفتر حجوزات الفندق الموجود على الاستقبال كتبت تلك العبارة :

الغرفة والركن محجوزا للسيد : الطيب صالح .. للأبد .

الحديقة الجميلة أمام الفندق الأنيق ، تبدو وكأنها عشيقة إرتمت تحت رجلي عشيقها ساعة رقص ، بخضرتها وجمال أشجارها وترتيب زهورها فائق الجمال .. وفي ركن معين ، معين تماماً تم إختياره بدقة ، جلس مجموعة من الناس ، سكان وسائحون ، يتبادلون الحديث في شتى

ضروب المعرفة .. الثقافة والأدب والفن والتاريخ .. حضارة تحكى .. تحكى في ذلك الركن الذي لا يغيب عنه ذلك الرجل أبداً .. في جميع الحكايا .. تجده حاضراً حتى وإن غاب ..

فذلك الركن مكتوب فيه على ألسنة الجميع .. (ركن الطيب صالح) ..

طفولة الطريق المؤدي الى مركز أصيلة الثقافي تظهرفي تحركاته البريئة ، يمنة ويسرة ، كبقية أزقة المدينة .. هذا الزقاق هو الآخر يتحدث عن الرجل .. يتحدث عنه ويعرف تماماً أن هناك شخوص مروا عليه دون خلقهم حتى .. شخوص مروا بأنفسهم .. ومروا مع مروركل خاطر لأحدهم في أصيلة ممن عاشوا في تلك الروايات الخالدة التي حكاها بقلمه ذلك الرجل لهذا الشارع ولكل الخواطر ..

فكان أن تعلقت تميمة الإعجاب به على جيد ذلك الزقاق الجميل فسمي به .. (زقاق الطيب صالح) ..

وفي مركز أصيلة الثقافي حيث تأكل المدينة وتشرب .. وتنام وتصحى .. حيث تصلي عليه صباحاً ومساءاً وتشد إليه رحال الحب أينما كان أحدهم في العالم .. هناك فقط ، ومن هناك بدأ ذلك الرجل حديثه مع أصيلة .. حديث الرسالة التي تؤمن بها الآن وتتعبد بها في كل شبر من بقاع المدينة ..

في المركز تقام الإحتفائيات ، والإحتفالات ، بمناسبات ودون مناسبات ، فالحضور لأصيلة هو في حد ذاته مناسبة فمابالك في السكن بها كأعظم مناسبة توجب الإحتفال .. تقام الليالي الثقافية .. ويأتي الحضور .. ويذهب حضور .. وتملأ المقاعد .. ويأتي آخرون يجلسون .. ويتغير كل شي .. إلا حضور ذلك الأسمر .. في كل فعالياتها .. في ذات المكان من الصف الأول في ذات الكرسي .. حضور دائم .. لاينقطع .. هكذا قالها مثقفي أصيلة .. عندما كتبوا على ذلك المقعد : (محجوز للأستاذ الطيب صالح) .

السير الذاتيه ولغز منسي

<u>محي الدين هارون :</u>

فطيب كـان للإبـداع نجمـا   وكان وحيد شمس فى السماء

فبعدك ظل فى الإبداع قـول   و لفَّ الشك صنوك فى العطاء

الشاعر حسن الافندي

تمر علينا هذه الأيام ذكرى رحيل الأديب العظيم الطيب صالح أو عبقري الرواية العربيه كما أطلق عليه النقاد ، حيث تعتلي سيرته وأعماله هرم المشهد الثقافي لتكون حديث مجالس أهل الثقافة ، ومناسبة حيوية لانطلاق بعض الفعاليات المختصة بالأدب بمدينة الخرطوم والتي اقترن معظمها بإسمه تخليداً لذكراه ، واحتفاءاً بتاريخه الذي وضع إسم السودان في الخارطه العالميه للأدب ، حيث ترجمت أعماله لأكثر من عشرين لغة حول العالم ، لتتناولها قضايا إنسان العالم الثالث الذي آمن به وعبر عن همومه وآلامه ، أفراحه وإحباطاته ، وعندما كان الولوج لعوالم الطيب صالح يبتدر من عظيم أعماله الخالدة " موسم الهجرة ، عرس الزين " ، كنت أنا أتلمس الطريق في متاهات القراءة المتشابكة فكان ولوجي إلى تلك العوالم متميزاً من نافذة السيرة الذاتيه ، وكانت سيرة (منسي إنسان نادر على طريقته) هي نافذتي نحو فيض إبداعه اللامنتهي ، ولها الفضل في دفع عجلات إدراكي الخاصة لفهم فلسفته الأدبية من صميم حياته التي إستعرض بعضاً منها في مقاطع كثيرة من أجزاء الكتاب.

هذا العمل والذي إذا ماتجاوزت فيه محور الشخصية الرئيسة " منسي " فإنك ستكون بلاشك قد عشت ردحاً من الزمن في ذاكرة الأديب مرافقاً له في رحلاته وأسفاره شرقاً وغرباً ،

وهنا تكمن عبقرية غير مكتشفة من الراحل الطيب صالح الذي وثق لسيرته الذاتية دون إحداث فرقعه بتمجيدها علانية كحال بعض الكتاب .

في تخليد ذكرى صديقه الراحل منسي صاحب الشخصيه الهزلية والمتفرده ، والتي قد لاتجدها إلا بين أسطر الروايات فكان نادراً على طريقته كما وصفته استاذته الكاتبه الانجليزيه باربرا براي ، ومن البديهي جداً ان نتلمس قدر تلك العلاقه التي جمعت بين الراحلان حيث يقول الكاتب في مستهل الكتاب :

" في مثل هذا اليوم من العام الماضي توفي رجل لم يكن مهماً بموازين الدنيا ، ولكنه كان مهماً في عرف ناس قليلين مثلي قبلوه على عواهنه ، وأحبوه على علاّته رجل قطع رحلة الحياة القصيره وثباً ، وشغل مساحة أكبر مما كان متاحاً له ، وأحدث في حدود العالم الذي تحرك فيه ضوضاء عظيمه "

ولك أن تستشِف عاطفة الحزن التي يخلفها رحيل الاحباء وهي تغمر شخص الكاتب فتدفعه لاستدرار شريط الذكريات ليسرد لنا حكاياته مع منسي ، مآثره ، تقلباته ، ومغامرته ،بطولاته ومواقفه المحرجه والمثيره للضحك ، وبرغم أنها كانت ضاربه في الواقعية من حيث الشخوص والأحداث بعيداً عن بحور الخيال كحال السير الذاتيه وهذا ماقد أكده الراحل في أحد لقاءاته التلفزيونيه إلا أن قلمه وأسلوبه العفوي المسترسل دفع بعض النقاد لأن يذهبوا بتحليلهم وقراءاتهم من منطق نقدي خالص لتصنيفها كعمل روائي من صميم فن الروايه وأن الراحل قد جعل من ذكر واقعيتها مجرد أيقونه لحصد المزيد من الاصداء لغرائبية شخصية منسي وماتخللها من عمق ، ككل ما أتسمت به شخوص الطيب صالح في أعماله الروائيه والقصصيه ، وبصورة شخصية أعترف أنني قد أعدت قراءة هذا العمل لثماني مرات ظناً مني أنها رواية من محض خيال الكاتب .

* منسي الذي حمل عدة اسماء

أحمد منسي يوسف ، ومنسي يوسف بسطاوروس ، ومايكل جوزف ، وكما يحكي الأديب :

" مثل على مسرح الحياة عدة أدوار حمالاً ومدرساً وممرضاً وممثلاً ومترجماً وكاتباً واستاذاً جامعياً ورجل أعمال ومهرج، ولد على مله ومات على مله آخرى ، ترك أبناء مسيحيين وأرمله

وأبناء مسلمين ، حين عرفته أول مرة كان فقيراً معدماً ولما مات ترك مزرعة من مائتي فدان من أجود الأراضي في جنوب إنجلترا ، وقصراً ذا أجنحه وحمام سباحه وأسطولاً من السيارات من مختلف الماركات ومزرعة من مائة فدان في ولاية فيرجينيا في الولايات المتحده "

من هنا يستنبط القارئ أنه على شفا الإطلاع على تجربة حياتيه خالصه مليئه بحكايا الكفاح التي تمخضت عنها تلك الإمبراطوريه ولكنه سرعان مايندهش بذلك الغموض الذي يحيط بسيرة منسي عندما يعبر بحادثة دفنه وكيف أنه كان لغزاً أربك الناس في حياته وفي مماته فبينما كانت أسرته المسيحيه التي تقيم في الولايات المتحده تنتظر إكتمال الإجراءات لحرق جثمانه ، يظهر الكاتب ليؤكد حقيقة إسلامه والذي يبدو أنهم لايعلمون عنه شيئاً ، ولا عن زوجته المسلمه المقيمه بالمملكة والتي تستعين عندما يبلغها النبأ بوزارة الخارجية السعودية لايقاف الإجراءات ، ودفنه في مقابر المسلمين فيتم الأمر بهدوء ، وتكون هذه الحادثة استدراراً لسلسلة طويلة من المواقف والأحداث المثيرة والمضحكه التي يقوم ببطولتها منسي .

والطيب ينادم نفسه و يتذكر منسي وحوادثه التي ما كان لعاقل أن يفعلها وما كان لمجنونٍ أن يفلت منها ، كانتحاله شخصية رئيس القسم العربي بالبي بي سي ومقابلة ملكة انكلترا ، والتحدث اليها في حادثة كادت أن تسفر عن طرده لولا الكثير من الوساطات وتصديه لرئيس وزراء بريطانيا سير انتوني ايدن في مناظره أقامها نادي شباب حزب المحافظين في لندن مهاجماً سياسة حكومته العدوانية تجاه مصر تلك البلاد التي قدم من صعيدها ، ومن ثم تلك الحادثه التي جعلت منه بطلاً قومياً تكتب عنه الصحف عندما مسح الأرض بيرتشارد كروسمان أحد مفكري اليسار الفطاحله في مناظرة أقامها إتحاد الطلاب في جامعة لندن في دفاعه عن قضية فلسطين وهو لايعلم عنها الا كما يعلم عن راعي الإبل في بادية كردفان ، معتمداً على شغل الحلبسه والأونطه كما قال الطيب الصالح .

منسي الذي تزوج من حفيدة الوزير الفيلسوف مؤلف كتاب يوتوبيا سير توماس مور وبين عشية وضحاها إنتقل من غرفته البسيطة في حي فولهام الشعبي إلى دار من طابقين في شارع سيدني الشهير عايش حياة متقلبه ، كان الطيب صالح شاهداً على كل فصولها ، مثل صداقته للكاتب المسرحي المشهور صامويل بيكت وإقتحامه لحياته وهو الذي كان في عزلة عن المجتمع ، والكثير الكثير من الطرائف والأحداث التي جعلت من منسي شخصية أقرب ماتكون الى الخيال .

الطيب صالح يثري ثقافتك الجغرافيه والتاريخية في هذا العمل ، حيث لم يفته أن يحكي عن أسفاره الكثيرة بمايمتلك من ناصية الكتابه ، ليجعلك بلاوعي تعيش تلك الأجواء السياسيه التي عاصرها في تلك الحقبه ، فتارةً تجد ذاتك تسابق الخطى في شوارع بيروت تلك المدينه التي أحبها كثيراً لتعايش تلك الفتره المربكه التي سبقت قيام الحرب اللبنانيه عام ١٩٧٥ ، فتشعر حقيقةً بخيبات الأمل الكثيرة التي مر بها بوصفه رجل عمل على نشر الثقافة وعكس صورة طيبة عن العالم العربي في وسائل الإعلام الغربية ، وتارةً ينتقل بك إلى سيدني وباريس والقاهرة ودلهي وبانكوك والدوحه رجوعاً إلى عمله في إذاعة البي بي سي ومنظمة اليونسكو، تلك الأسفار التي كان لها الفضل في صقل تجربته الأدبيه ، بإطلاعه على نمط الحياة في كل جغرافيا كان قد شد الرحال اليها فخالط أنواع وأجناس من البشر وبالتالي لم يفت منسي ان يقتفي أثره في تلك الأسفار ويدهشه في كل مرة بظهوره المباغت ، ألم يكن هو منسي النادر على طريقته ؟!

عن مختارات الطيب صالح

مأمون الجاك:

بالنسبة للكثيرين فان مختارات الطيب صالح - مقالات نشرت في صحف عديدة ثم جمعت بعد ذلك في ١٠ كتب - لا تقل أبداً في أهميتها عن أعماله الروائية ، اذ أنها كتبت بذات النبض والثراء المعرفي ، فبعد توقفه عن الكتابة السردية اتجه عبقري الرواية العربية الى الكتابة المقالية الحرة ويبدو أنه وجد فيها متسعاً لعرض أفكاره ورؤاه وشهاداته لأحداث عاصرها ... يقول محمود صالح عثمان صالح عن المختارات : " الطيب صالح - في رأيي - كاتب شامل مكنته ثقافته العميقة وإطلاعه الواسع باللغتين العربية والانجليزية على : علوم اللغة ، الفقه ، الفلسفة ، السياسة ، علم النفس ، علم الأجناس والأدب ، والشعر ، والمسرح ، والاعلام أن يروي ، ويحكي ، ويخبر ، ويوصف ويحلل ، ويقارن ، وينقد ، ويترجم بأسلوب سهل عذب ينفذ الى الوجدان والفكر كما تشهد هذه المجموعة من المختارات "

يطوف بنا الروائي العظيم عبر هذه المقالات الى أماكن مختلفة ويسير بنا عبر أزمنة متعددة وطرق متشعبة ، ويعرفنا الى شخصيات شاركته مسيرته الابداعية وأخرى تقاسمت معه المسرح ، ففي " منسي ... انسان نادر على طريقته " يرجع الطيب صالح الى عادته المحببة في تدوين حياة الشخصيات الفريدة والمبهرة ، ذات الطباع والمواقف الغريبة ، بدءًا بالزين ، مرورا بمصطفى سعيد وضو البيت وانتهاءًا بمنسي ، كل واحد من هؤلاء نسيج لحاله ، عجيباً في تصرفاته وأحواله ، سلط الأديب الضوء عليهم وترك لهم مسرح الأحداث يعبثون فيه كيفما شاؤوا ، فرسخوا في ذاكرة القارئ ، كما يمثل هذا الكتاب توثيقاً لجزء من سيرة المريود ، رغم أنه ينزوي عن الأضواء طائعاً وهي توجه وتبرق نحوه ، فنرى ها هنا قبساً من رحلاته ، وهو المصاب بداء الرحيل كأنه يسير على خطى المتنبي :

غني عن الأوطان ... لا يستفزني الى بلد سافرت عنه اياب

وكأن أبو الطيب يعنيه حين قال :

مضت الدهور فما أتين بمثله ... ولقد أتى فعجزن عن نظرائه

ونتعرف على آرائه في أدباء ك" صامويل بيكت " الذي كال له التقريظ والمديح كذلك الحال بالنسبة لجيمس جويس ، ومواقفه من بعض الأحداث كالحرب الفلسطينية الاسرائيلية ، الحرب الأهلية اللبنانية ، عمله في الBBC ، يتخلل ذلك الوقائع المضحكة والغرائبية التي تقع له رفقة منسي وهما يتنقلان من بلد لآخر.

وفي سفره البديع " في صحبة المتنبي ورفاقه " يأخذنا معه الى مدن موغلة في القدم فنراها رأي العين ونسمع خطوات من مشوا على تلك الدروب ، انه يعيد صياغة حياة الشاعر العظيم ، بكر الزمان وفلتة الدهور كما يصفه هو ، يحلل وينقد ويوضح مع امتلاكه لأدوات النقد الحديثة ونظرة الأديب العارف المتمكن وذائقة الفنان ومعرفة بدقائق أسرار اللغة العربية واطلاع ثر على ما خطه المستشرقون عن الأدب العربي ، يسبر أغوار نفسي المتنبي والمعري ، ويشرح البيت من القصيدة فيتجلى الجمال الكامن فيه ويغدو لوحة منفصلة ويبين المعاني الخفية والمجهولة ، مستشفاً لآثار عبقرية المتنبي ، مدافعاً عنه ضد منكري فضله ، مفنداً لمآخذهم عليه إنتهازيته وسعيه وراء السلطة ، لكنه مع ذلك لا يتمادى في تقديسه ولكن يلومه ويؤنبه ويذكر أخطائه ، فها هو يعيب عليه قوله بمدح أحد الأمراء من آل البيت :

وأبهر آيات التهامي أنه أبوك ... وأجدى ما لكم من مناقب .

يسوق تبريرات القدماء له ثم يعود ليوضح أن ذلك البيت فيه اساءة أدب مع النبي - قصد الشاعر بالتهامي " النبي محمد " وأن أوضح آياته هو أنه جد لذلك الأمير - ، ثم تراه يقف الى جانب كافور ، منافحاً عنه ومفحماً لمن قالوا أن المتنبي لم يمدحه وإنما هزئ به ، ويعيد بعث المعارك الأدبية القديمة فتنظر الى طه حسين ينتقص من قدر المتنبي وتسمع محمود شاكر يرد عليه ثم يأتي الطيب صالح ليوفق بين هذا وذاك وينصف المتنبي ، مستدلاً بما كتبه جهابذة شارحي ديوانه البارع ويلتفت الى معاني قد فاتهم إدراكها فاذا هو يبذهم ويتفوق عليهم .

ووسط هذا كله لا يغيب عنه همه الأكبر" السودان " ، فاذا بك تراه يستثير البيت من القصيدة كوامن أشجانه فيذكر الوطن وما فعله به الساسة ، يحزنه ضياعه وتكدر حروب أبناءه عليه صفائه :

" ان تعجب فأعجب لرجال يقتحمون مسرح التاريخ - من أين لهم كل هذه الثقة بالنفس ؟ - الأوطان صفحات بيضاء تخط فيها كيف تشاء ، كأن أحدا لم يجئ قبلهم ولا أحد سوف يجئ بعدهم . وقد زعموا أنهم أهل تقوى وقرآن ؟ أفلا يتدبرون معاني كلام الله الكريم ؟ ومن أين لهم أن يحيطوا بكل احتمالات المستقبل "

انه أيضا لا ينسى أدب السودان ، يستشهد بأبيات من الشعر العامي وقصائد الحردلو ، بل ويعقد مقارنة بين الحردلو والشاعر الأموي ذو الرمة ...

هاجس الوطن يعاوده مرة أخرى في كتاب " وطني السودان " ، يتسائل هل ما زال السودان كما تركه عام ٨٨ ، وهو يتابع تلك الأحداث بعين فاحصة من على البعد ، يضع السياسيين على ميزان عادل ، يذم بعضهم ويتنبأ لآخرين بمستقبل جيد ، يسائل جعفر نميري وهو يتوق للعودة للسودان من منفاه : تعود لأي شئ يا رعاك الله ؟ أما حكمت قرابة عشرين عاماً فكنت مثل طفل شرس أطلق سراحه في متحف للخزف النادر ، فكسرت وهشمت ؟

ثم يتحدث حديث العارف عن الصادق المهدي قائلاً : لقد عرفته في لندن حين كان طالباً ، ثم عملت معه فترة وجيزة عام ٦٦ حين كان رئيساً للوزراء ووزيراً للاعلام وهو لم يتجاوز الثلاثين ، ثم هاهو بعد نحو عشرين عاماً .. هو هو ، لم يتغيركثيراً ، أدبه الجم نفسه ودماثته المعهودة ، ويقول عن عبد الرحمن سوار الذهب : لقيت سوار الذهب منذ شهرين في صلاة الجمعة ، لمحني في الصلاة فلبث ينتظرني عند الباب ، كذلك هو انسان مهذب . وأكثر ما لفت انتباهي في حديث الطيب صالح عن السياسيين كلامه عن باقان أموم فقد تنبأ له بلعب دور بارز في ملعب السياسة السودانية ، وقال عنه أنه سيكون ذا شأن .. وقد كان - رغم أن باقان كان حينها شاباً صغيراً ، يرافق البعثات هنا وهناك - ، ولا ننسى أنه اضافة لبكائه السودان فقد بكى رموزه - محمود محمد طه بعدما أعدمه نميري - كما أن له رسالة شهيرة وجهها لحسن الترابي بعد المفاصلة ، يدعوه فيها الى أخذ العظة والتوبة والتكفير عن ما فعله بالشعب والوطن ولكن " سفاه الشيخ لا حلم بعده " .

و كتاب " مقدمات لدواوين شعروكتب " جمعت فيه المقدمات التي كتبها الطيب صالح كتقديم لدواوين بعض الشعراء : صلاح أحمد ابراهيم ، الحردلو وغيرهم

وفي " خواطر الترحال " و " للمدن تفرد وحديث - بجزئيه : الشرق والغرب " و " المضيئون كالنجوم من أعلام العرب والفرنجة " ، يستكمل الطيب صالح ما بدأه قديماً ، بشأن عالمية رسالته ، فتجده يتحدث عن الشخصيات التي كان لها أثركبيرفي تكوين حضارات الشرق والغرب .

بينما خُصص كتاب " في رحاب الجنادرية وأصيلة " لمقالات كتبها عن هذين المهرجانين .

سينما الطيب صالح التي كان يجب أن تكون .. عرس الزين نموذجاً

<u>**إبراهيم مرسال :**</u>

والكتابه عن ما يخص الطيب صالح (رحمه الله) أمر جلل، كيف تقول ما تريد قوله في حضرة الأديب السوداني الأول وأحد أعمدة الأدب الأفريقي والعربي .. الرجل كنز لم يستكشف كامل الاستكشاف ، أصابته لعنة "لا كرامة لنبي في قومه "، فهذا الأديب الذي يحتفي به كل العالم، نصيبه من الاحتفاء عندنا هو جائزة أدبية تجارية ، و شارع غير رئيس في العاصمة ! .

إن أكثر صور عدم استغلال الكنز المسمى بالطيب صالح ، يظهر في جانب السينما .. فالفيلم الوحيد الذي أنتج من أعماله هو إنتاج كويتي ، فيلم (عرس الزين) الذي كتب السيناريو الخاص به واخرجه الكويتي خالد الصديق ، من معالجة لرواية الطيب صالح التي تحمل نفس الاسم، انتج الفيلم عام ١٩٧٦، وكان الممثل الرسمي للكويت في مسابقة أفضل فيلم أجنبي في أوسكار ذلك العام ، إلا انه لم يترشح .

كان الفيلم وفياً للرواية وأحداثها ، مع بعض الإضافات الضروريه لمعالجة النص الروائي درامياً ، ويظهر لك حيز الإبداع الواسع لو وجدت أعمال أديبنا الطيب صالح ، بعضاً من الاهتمام السينمائي ..

الفلم نجح كما الرواية في نقل تفاصيل القرية السودانية بصورة بديعة .. ولا عجب ، فالمخرج الكويتي نظر للرواية ولمواقع التصوير نظرة السائح المنبهر .. ويحسب له دقته في نقل تفاصيل المناسبات الإجتماعيه التي تعج بها الروايه والفيلم ..

اختيار المخرج للممثلين كذلك كان ممتازاً .. فالرواية صعبة في شخصياتها، تحتاج الى عين بصيرة لاختيار الممثل القادر على تجسيد انسان الرواية ، وقد سألت نفسي كثيراً كيف يمكن ايجاد ممثلين قادرين على إحياء شخصيات هذه الرواية العظيمة ، لو قدر إنتاجها الآن في شكل فيلم .. وأعتقد أن المخرج وفق غاية التوفيق في هذا التحدي .. إن أميز ما كان في الفيلم

هو أداء الممثل (علي مهدي) لشخصية الزين ، فقد نجح في التقاط جنون و صخب الشخصية ، مع الابقاء على روحها الغامضة والجذابة .. كذلك يجب الإشارة لأداء الممثلة (تحيه زروق) في دور نعمه، فقد جسدت و عبرت ببراعة عن جملة الروايه الشهيرة في وصف (نعمه) :" كل هذا وفي الحي فتاة وقورة المحيا، غاضبة العينين، تراقب الزين في صمت " ..

ما يعاب على الفيلم إبتعاده عن سرعة الرواية .. فرواية (عرس الزين) من الروايات التي يندر وجود من قرأها في اكثر من جلسة واحدة .. إذ أنها تتقافز ببراعة بين مزيج كبير من الشخصيات والقصص، يصعب معه الشعور بالملل أو مقاومة الإنجراف مع الوتيرة السريعة .. وأعتقد أن المخرج قد وقع بين مطرقة كثرة شخصيات الرواية ، وسندان صعوبة استكشافها كلها في فيلم واحد .. فحاول تقديم موجز بصري عن الرواية ، بدل التركيز على نقل وجهة نظر واضحة ..

كذلك فان الفيلم يحتاج إلى معالجة تقنية تحول النسخة الاصلية الى نسخة رقمية جيدة .. فالنسخ الموجودة الآن على الانترنت مريعة في سوء جودتها .. وهذه دعوه لسودان فلم فاكتوري، المؤسسه الرائدة في معالجة الأعمال الفنية السودانية القديمة رقمياً، كي تقوم بسحرها مع هذا الفيلم الذي يحمل بصمة تراثية من المخجل رؤيتها بالجودة السيئة الموجودة الآن ..

ختاماً .. فإن روايات الطيب صالح كنز سينمائي لا مثيل له .. هي روايات تغوص بعمق في نفسية الانسان السوداني، وتحتوي كذلك على الكثير من الأحداث المثيرة ، خالقة مزيجاً فريداً من الدراما المشوقة ومن المؤسف عدم استغلالها حتى الان .

زد على ذلك مواقع وقوع الروايات ، فهي أماكن ثرية لتشكيل الشخصيه في حد ذاتها .. وكان سيكون من الممتع رؤيتها وهي تستغل بصرياً ..

أفضل ما يمكن به ختام هذا المقال ، هو كلمات الرجل نفسه .. الطيب صالح متحدثاً عن أعماله والسينما حين سأله محرر مجلة العربي عن السينما و الرواية .. فكان رده :

" علاقتي بالسينما؟! الله يعلم ما علاقتي بالسينما !! .. علاقتي بالسينما كروائي أنني مشاهد مهتم ومتابع للمتميز من الأفلام ، وأعتبر نفسي مشاهداً غير عادي.. إذا كان المشاهد العادي يبحث في السينما عن مجرد المتعة ، فأنا أزيده في أنني أتتبع النشاط السينمائي فناً قائماً

بذاته، ويهمني أن ألاحظ مزايا مدارس هذا الفن وإنجازاتها، وأعجب بإبداعات السينمائيين الكبار في كل أنحاء العالم، أما علاقتي الشخصية بالسينما - وأقصد علاقتي الروائية - فلا تزيد على أن إحدى رواياتي وهي "عرس الزين" قد حولت إلى السينما، على يد المخرج الكويتي خالد الصديق ، ولكنني أرى أن ثمة علاقة واجبة بين مختلف أشكال الفن وفروعه، ومن المفترض أن تنفتح الفنون على بعضها بعضا، ثم إنني أرى في وسائل الاتصال الجماهيرية وفنونها والسينما والتلفزيون ، تعزيزا للإنتاج الروائي، فهي تنقل الرواية من حيز الورق إلى حيز الصورة المجسدة حيث يراها أكبر عدد من الجمهور ، وخصوصا الجمهور الواسع الذي لم يعتد قراءة الكتب في حياته اليومية، وهذا مكسب يعد في صالح الروايات وكتابها أما قضية المطابقة أو عدم المطابقة بين الأفلام وأصولها الروائية ، فأعتقد أن علينا أن ندع هذا الأمر للعاملين في ميدان السينما، ولمدى حساسيتهم، وإدراكهم للعلاقة الحميمة بين الأدب والسينما. . ولو نظرنا إلى ما يجري في عالم اليوم لرأينا أن السينما والتلفزيون يعيشان على الإنتاج الروائي بالدرجة الأولى، ويقدمان من خلاله أبرز إبداعاتهما الدرامية، والأمر لا يتعلق بالإنتاج الروائي المعاصر والحديث فحسب، بل يمتد ليشمل عيون الإنتاج الكلاسيكي إن في الرواية أم في المسرح، ولكن إذا تساءلنا: هل نقلت هذه الأعمال الروائية إلى السينما كما يريد الكاتب، أم أن السينما غيرت وبدلت في هذا العمل أو ذاك؟ فتلك في رأيي قضية أخرى، هنا لا بد من الاعتراف- وهذا هو رأيي الذي أكرره دائماً - بأن لكل وسيلة فنية منطقها الخاص، ولغتها المميزة، ولذلك فإن مسئولية الكاتب الروائي تنتهي عند حدود ما كتب بين دفتي روايته.. وإذا ما وثق هذا الكاتب بمخرج معين، وقبل أن ينقل هذا المخرج روايته إلى لغة السينما، فإن المسئولية عند ذلك تقع على عاتق المخرج، ويكون الكاتب في حل من هذه المسئولية الفنية في هذا النتاج السينمائي الجديد. "

موسم الطيب صالح يعبر الحدود

لين روجرز:

ترجمة خاصة لجيل جديد : أزهار أحمد

أول ما يأتي ذكر السودان لا يخطر على بال الناس إلا أمران ، الأول الأزمة السياسية في دارفور، والثاني الكاتب العبقري الطيب صالح الذي توفي في لندن وهو في الثمانين من عمره. إعتبر العديد من النقاد رائعة الطيب صالح " موسم الهجرة إلى الشمال" التي نشرت لأول مرة باللغة الإنجليزية في عام ١٩٦٩، على أنها العمل الذي أدخل الأدب العربي المعاصر إلى الساحة العالمية وإلى المعايير الأدبية الحديثة ولد الطيب صالح في عام ١٩٢٩ بقرية شمال السودان ودرس في جامعة الخرطوم.

في عام ١٩٥٦ غادر الطيب صالح السودان إلى المملكة المتحدة لدراسة الشؤون الدولية في جامعة لندن، وعمل في قسم الدراما بهيئة الإذاعة البريطانية، ثم هاجر إلى قطر، وعمل في وزارة الإعلام القطرية. بعدها عمل في مكتب اليونسكو بباريس. ثم ظل بعد ذلك يكتب في مجلة "المجلة" التي تصدر في لندن.

كان الطيب صالح متعاطفاً مع الأدب العربي، وكثيراً ما أبدى أسفه من عدم وجود ترجمات لمؤلفات الكتّاب العرب. وفي حوار للجزيرة قال: " دائماً ما يذهب الناس إلى الاستنتاجات الخاطئة عندما تظهر أزمة سياسية وذلك لأنهم يفتقرون إلى المرجعية الصحيحة". كان الطيب صالح مؤيداً للحقوق الإنسانية، ومعارضاً صريحا للنظام الإسلامي في السودان، وإلى الاستغلال السياسي الخاطئ للقرآن.

ولأنه مهاجر مثل الكاتب الأيرلندي جيمس جويس، ظل الطيب صالح باستمرار يستقي إلهام رواياته من موطنه الأصلي/القرية. ومثل الكاتب الإنجليزي توماس هاردي، والروائي الأمريكي الحائز على جائزة نوبل ويليام فوكنر شكلت القرية البسيطة المتخيلة موضوعاً مهماً في كتاباته الإنسانية والكونية. كما في مجموعته القصصية الأولى التي نشرت عام ١٩٦٠ " دومة ود حامد". ففي قصة " دومة ود حامد" من هذه المجموعة يصف الطيب صالح مونولوجاً مأساوياً كان بداية لإستخدامه الحياة الخارجية والحداثة التي غزت حياة القرية في كتاباته ، حيث كانت شخصيات القصة تصارع الظلم والفساد الأصلي المتجذر في كل قرية وعائلة. كما في قصة "حفنة تمر" التي تتحدث عن ولد صغير يكتشف قسوة ومكر جده الحبيب. دائماً ما تمثل شخصية الجد بصفته ناقلاً للثقافة، دافعاً مستمراً للكتابة لدى الطيب صالح، فهو الذي ينقل قبح وجمال القرية السودانية لحفيده ، ويحمّل ذلك الولد القروي البسيط تلك المسئولية.

في كتابه "الطيب صالح الأيدلوجيا وصنعة السرد"، ناقش الناقد العربي الأميركي وائل حسن في دراسة نقدية بعنوان "دائرة حياة ود حامد"، تكرار موضوع علاقة الجد بالحفيد التي تؤطر في كثير من الأحيان مخاوف الطيب صالح بشأن القديم والجديد ، والتقاليد والحداثة، التوافق والمعارضة.

في روايته القصيرة "عرس الزين" والتي نشرت عام ١٩٦٧، تتجسد براعة الطيب صالح في خلط الثقافة الشفهية السودانية والمعايير الكلاسيكية الغربية. تذكرنا شخصية الزين بشخصيات شكسبير الحمقى الحكيمة ، فهو أحمق ومغفل يشبه الحيوانات في تصرفاته ، لكنه أيضا وهب الحساسية الروحية، ولديه نظرة خاصة في رؤية الجمال. عندما عاد من المستشفى بعد أن أصلح أسنانه ظهرت وسامته ولم يعد مضحكاً ، ليتزوج بعدها من ابنة عمه الجميلة ويقف أمام الناس مثل "سارية سفينة".

لاحقاً تحولت الرواية إلى فيلم سينمائي في ليبيا من إخراج المخرج الكويتي خالد صديق وفاز في مهرجان كان. وفي روايته الثانية التي تتماس مع السياسة أيضاً "ضو البيت - بندرشاه" يتعمق الطيب صالح في تبني الموضوعات الأساسية لصياغة الأسطورة، وغواية الاستسلام، وقوة الحياة التي يمنحها نهر النيل، والحب الأمومي، ومغامرات المراهقين.

ظل الطيب صالح في تصوير حياة القرية، يستمد مواضيعه من تنوع الفئات الإجتماعية ، وكل ما يطال المجتمع القروي من فساد ، ومشاكل الري، والاحتفالات، والتمسك الصارم بالتقاليد. ثم اتجه للرموز العالمية التي احتلت أيضاً روايته الأكثر تأثيراً " موسم الهجرة إلى الشمال". وبعد صدورها بسنوات في بيروت ، صدر لها ترجمة بعنوان "موسم" لاقت رواجاً واسعاً نشرت في مجلة أدبية معروفة عنوانها: إنكاونتر. ثم اكتشف لاحقاً أن تلك المجلة كان يمولها مركز الاستخبارات المركزية عبر" مؤتمر الحرية الثقافية ".

وبالرغم من أن روايته المترجمة أصبحت أحد الروايات الكلاسيكية الرائجة في دار بينجوين للنشر، وهو أمر نادر بالنسبة لعمل أدبي عربي ، إلا أنها وبسبب المواضيع الجنسية الصريحة ، والنقاشات الواضحة عن الإسلام ، وملامسته لموضوع ختان البنات حظرت هذه الرواية في عدة دول عربية منها مصر، وما زالت حتى اليوم ممنوعة في السودان ودول الخليج العربي. وفي مقارنة مألوفة اليوم للثقافة الغربية والشرقية تستفتح هذه الرواية بطالب درس الشعر يكتشف غريباً متخفياً في قريته وعندما سمع الطالب الغريب مصطفى يقرأ قصيدة لفورد مادوكس فورد وهو ثمل، انجذب إلى حياة مصطفى وماضيه القاسي الذي عاشه أثناء إقامته في لندن.

قارن النقاد بين رواية جوزيف كونراد المعقدة لإدانتها الاستعمار، وبين ازدواجية السرد في رواية الطيب صالح الذي يطمس الحدود بين الراوي والحكاية . أما الناقد عيسى بلاطة فيرى أن هذه الرواية " تؤكد على الجانب السياسي لمواجهة الشرق/الغرب من خلال تقمص شخصية مصطفى سعيد وتحوله إلى شخصية حقودة تعبر عن غضبها بالاغتصاب والفجاجة ". وقد قال المؤلف بنفسه " لقد أعدت تصنيف ما يسمى بالعلاقات الشرقية/الغربية إلى خانة الصراعات، بينما كانت في الماضي تندرج ضمن التعبيرات العاطفية". فحين كان بطل الرواية مصطفى يعرّف نفسه للفتاة المغتصبة على أنه "عربي- أفريقي" فهي إشارة إلى التعقيدات السياسية التي تجاوزت النموذج الشرقي/الغربي في تلميح للتوترات في السودان. ومع ذلك، فإن جوهر الرواية الذي يكمن في إستجابة الطيب صالح للشاعر العظيم يوضح عمق ورسوخ الأفكار المسبقة الناتجة عن الثقافة.

خلال محاكمة البطل بتهمة القتل، وبينما كان المحامون مستميتون في الدفاع كل من مكانته، كان يفكر في نفسه راغباً في أن يصرخ منتقدا إياها : " أنا لست عطيل..عطيل كان أكذوبة ".

إلا أنه ظل صامتاً. وبعد مرور ما يقرب من ٥٠ عاماً عندما سادت موجة المنظومة الأدبية الحديثة على الكتابات التقليدية السائدة، احتفظت "موسم الهجرة إلى الشمال" بقوتها في صدم القراء بقناعاتهم المخفية. وتقول المصادر الأدبية العربية والبريطانية ، أن الرواية أظهرت العمق والوعي الفكري للموقف السياسي " الحاد" لذكاء مصطفى الفطري.

أشاد ديفيد برايس جونز في قراءة أعدها عن الرواية المترجمة قائلا : " نثر مدهش وسلس، هذه الرواية أكثر تثقيفاً من أي كتاب أكاديمي آخر" أما الناقد المعروف روجر ألن فقد وصف بناء الرواية على أنه " بارع" على إعتبار أنها عبرت الحدود الثقافية. كتب روجر: يكمن الأسلوب الفذ الذي استخدمه المؤلف لينقل سوء الفهم على أوسع نطاق ثقافي في استخدامه للمكان وبالتحديد من غرفتين فقط." وينعكس المكان المزدوج ذاك في زوجتين ميتتين هما جان موريس في لندن، وحسنى بنت محمدين .

كتب الناقد ستيفان ماير عن التجريبية في الرواية العربية: " قد تبدو هذه الرواية مهمة من عدة نواحي، لكنها من ناحية أهم هي وسيلة لاكتشاف تشابك العلاقات بين النوع الإنساني والسلطة". ضمن مظلة الشرق/الغرب تنسج الرواية مجموعة كبيرة من الجدليات، مثل: الذكر/الأنثى، المسلم/ المسيحي، الشمال/الجنوب، التقليد/الحداثة، الريف/الحضر، الأيروس والثاناتوس، وهي كافية لظهور كتابات جيل من الأكاديميين حول الفروق الدقيقة غير المكتشفة في الرواية.

وبما أن النقاد لم يتفقوا بعد على الصورة النهائية لخاتمة الرواية ، إلا أن عيسى بلاطة يرى الخاتمة على أنها تأكيد للحياة حين يقوم الراوي باتخاذ قراراته لأول مرة بنفسه. بينما يرى الآخرون أنه لا جدوى من صرخة البطل النهائية.

لكن رغم ذلك ستستمر عبقرية الطيب صالح ملهمة للكتاب والمفكرين العرب والغربيين.

الفصل الثانـي

القصص

الرجل القبرصي

نيقوسيا في شهر يوليو

كما لو أن الخرطوم قامت مقام دمشق. الشوارع كما خططها الإنجليز، والصحراء –

صحراء الخرطوم. ولكن ذلك الصراع بين ريح الصبا وريح الدبور كما أذكره في دمشق وهي إنجليزية من رأسها حتى أخمص قدميها بالرغم من كل تلك الدماء صدمت لأنني توقعت بلداً ذا طابع هليني لكن الرجل لم يمهلني ريثما أوصل الفكرة إلى نهايتها. جاء وجلس جانب على حافة حوض السباحة التفت لفتة خفيفة فأحضروا له فنجان قهوة فوراً اتجه نحوى كأننا كنا على موعد.

وقال:

سائح ؟

قلت: نعم

أحدث صوتاً لم أفهم مغزاه كأنه يقول أن مثلي لا يستحق أن يكون سائحاً في نيقوسيا، أو أن نيقوسيا لا تستحق أن يكون مثلي سائحاً فيها.

انصرفت عنه بالتمعن في امرأة وجهها مثل ملائكة روفائيل، وجسدها مثل نساء قوقان. هل هي الزوجة أم المرأة الأخرى؟ وقررت بسرعة أن الزوجة هي المرأة الأخرى لأن الرجل منصرف بكليته إلى المرأة السماوية الوجه، الأرضية الجسد. مرة أخرى قطع علي صاحبي القبرصي حبل تفكيري:

- من أين؟

- من السودان؟

- ماذا تعمل؟

- في الحكومة؟

أيضاً ذلك الصوت الغريب، لكن مغزاه كان واضحاً لا مراء فه هذه المرة، يعني، أنني، والسودان، والحكومة، ماذا أقول؟ ابتسمت لأن الحكومات صدرها واسع على أي حال، وأنا في الواقع لا أعمل في الحكومة.

- قال بلا مناسبة ، بإنجليزية حسنة:

- عندي مصنع.

- صحيح؟

- لصنع أزياء النساء.

- شئ جميل.

- كونت ثروة كبيرة اشتغلت مثل العبد . عملت ثروة. الآن لا أعمل أقضي وقتي كله في الفراش.

- تنام؟

- أنام ؟ أنت تمزح. ماذا يفعل الرجل في الفراش ؟ يلهو. طالع نازل. واحدة تلو الأخرى. طول اليوم.

- ألا تتعب؟

- أنت تمزح. انظر إلى كم تظن سني؟

- أحياناً خمسون، وسبعون أحياناً، لكنني لم أشأ أن أساعده قلت له:

- سبعون

لم يؤلمه ذلك كما قدرت، ولكنه ضحك ضحكة مجلجلة وقال:

- خمسة وسبعون في الواقع، ولكن ما من أحد يعطيني أكثر من خمسين، قل الحق.

- خمسون إذا شئت.

- لماذا؟

- تتريض.

- نعم، في الفراش، أطلع أنزل بيض وسود وحمر وصفر. كل الألوان. أوروبيات وزنجيات وهنود وعرب ويهود مسلمون ونصارى وبوذيون جميع الأديان.

- أنت رجل متحرر.

- نعم في الفراش..

- وفي الخارج؟

- أكره اليهود.

- لماذا تكره اليهود؟

- هكذا، لوجه الله . ثم إنهم يلعبون بحذق !

- ماذا؟

- لعبة الموت. مارسوها منذ قرون.

- لماذا يغضبك هذا؟

- لأنني.. لأنني.. لا يهم.

- ألا يغلبون؟

- كلهم ستسلمون في نهاية الأمر، بكت ، في انتظار قودو.

- ونساؤهم؟

- ليس أحسن منهن في الفراش.. كلما ازدادت كراهيتك لهم ازدادت متعتك مع نسائهم انهم شعبي المختار.

- وزنوج أمريكا ؟

- لم تصل علاقتي بهم إلى درجة الكراهية. يجب أن أنتبه لهم أكثر.

- والعرب؟

- يثيرون الضحك أو الرثاء ، ويستسلمون بسهولة. في هذه الأيام على الأقل اللعب معهم ليس ممتعاً لأنه من طرف واحد..

فكرت، لو أنهم قبلوا بقبرص، لو أن بلفور وعدهم إياها.

ضحك الرجل القبرصي ضحكته المجلجلة وقال:

"المرأة تطيل العمر – يجب أن يبدو الرجل أصغر من سنه بعشرين سنة على الأقل، هذه هي الشطارة".

- هل تخدع الموت ؟

- ما هو الموت ؟ شخص يلقاك صدفة ، يجلس معك ، كما تجلس الآن ، ويتبسط معك في الحديث ، ربما عن الطقس أو النساء أو أسعار الأسهم في سوق المال. ثم يوصلك بأدب إلى الباب يفتح الباب ويشير إليك أن تخرج بعد ذلك لا تعلم.

كأن غيمة رمادية ظللت برهة فوق المكان، لكنني في تلك اللحظة لم أكن أعلم أن القداح تضرب وأن الرجل القبرصي يلعب معي لعبة خطرة.

اتسعت موجة الضحك فشملتني كانت عائلة عذبة أنست لها منذ جلست، الأب طيب الوجه، والأم صوتها الإنجليزي مثل لحن إليزابيثي من أوتار قيثارة عريقة أربع بنات كبراهن لا تزيد عن الثانية عشرة. كن يدخلن حوض للسباحة ويخرجن ويضحكن، ويعابثن أبويهن ، ويضحكن وكانوا يبتسمون لي، ويوسعون دائرة سعادتهن حتى شملتني. وجاءت لحظة رأيت على وجه الأب أنه يوشك أن يدعوني أن أنضم إلى مجلسهم، في تلك اللحظة دهمني الرجل القبرصي قامت

البنت الكبرى وخطت برشاقة نحو حوض السباحة قال الرجل للقبرصي والبنت توقفت فجأة كأن قوة غامضة أوقفتها قال:

- هذه أدفع فيها مائة جنيه إسترليني.

قلت له مذعوراً:

- "لماذا"؟

أشار الرجل القبرصي بذراعه إشارة بشعة.

في تلك اللحظة انكبت البنت على وجهها، سقطت على الحجر وسال الدم من جبهتها هبت العائلة الطيبة مثل طيور مذعورة وأحاطوا بالبنت فوراً قمت من جنب الرجل وأنا أشعر نحوه بكراهية طاغية، وجلست على مائدة بعيداً عنه.

تذكرت بنات وأمهن في بيروت وغضبت، ورأيت أفراد العائلة الجميلة ينصرفون مبتئسين، البنات يتشبثن بالأم والأم تتحامل على الأب، فغضبت أكثر ثم سكت وسكتت الأشياء حولي . وانحسرت الضوضاء وجاء صديقي الطاهر "ود الرواسي" وجلس إلى جانبي على الكنبة أمام متجر سعد كان متهلل الوجه نشطاً ممتلئاً عافية قلت له:

"صحح ليش ما كبرت أو عجزت مع أنك أكبر منهم كلهم؟"

قال:

"من وعيت على الدنيا وأنا متحرك ما أذكر أني وقفت من الحركة أشتغل مثل الحصان وإذا كان مافي شغل أخلق أي حاجة أشغل نفسي بها. أنوم وقت ما أنوم بدري أو وخري، شرط أصحي على المؤذن أول ما يقول "الله أكبر الله أكبر" لصلاة الفجر".

- لكنك لا تصلي؟

- أتشهد وأستغفر بعد ما المؤذن يخلص الأذان، وقلبي يتطمن أن الدنيا ماشية زي ما كانت. آخذ غفوة مثل نص ساعة، العجيب غفوة ما بعد الأذان تسوي عندي نوم الليل كله. بعدها أصحي كأنه صحاني منبه. أعمل الشاي واصحي فاطمة. هي تصلي صلاة الصبح.. نشرب الشاي. أنا أ،زل أقابل الشمس فوق صفحة النيل وأقول لصباح الله حبابك ومرحبابك. أغيب

ذي ما أغيب أرجع ألقى الفطور حاضر نقعد أنا وفاطمة وأي إنسان من عباد الله تجئ به لينا القسمة أكثر من خمسين سنة على هذي الحالة".

يوماً ما سأسأل الطاهر ود الرواسي، عن قصة زواجه بفاطمة بنت جبر الدار، إحدى أخوات محبوب الأربعة. هل أسأله الآن؟ لم يكن ولاؤه لنفسه، بل كان لمحبوب، وكان يضحك على نفسه وعلى الدنيا. هل صبح بطلاً ؟ واضح أنه إذا جد الجد فسوف يفدي محبوب بنفسه. هل أسأله الآن؟ لكنه قال، وحده جملة صغيرة مصنوعة من نسيج حياته كلها:

- "فاطمة بنت جبر الدار هالله. الله".

- ومحبوب؟

ضحك الطاهر ود الرواسي ضحكة لها طعم تلك الأيام، وذلك مدى حبه لمحبوب، حتى ذكر اسمه يملؤه سعادة، كأن وجود محبوب على وجه الأرض يجعلها أقل عدواناً، وأكثر خيراً في نظر الطاهر ود الرواسي ضحك وقال وهو يضحك:

"محبوب حاجة تانية محبوب معمول من طينة غير"

ثم سكت وكان واضحاً لي أنه لا يريد وقتها أن يقول أكثر في ذلك الموضوع بالذات بعد مدة سألته:

"عبد الحفيظ قال إنك ما دخلت الجامع في حياتك أبداً صحيح؟

- مرة واحدة بس دخلت الجامع.

- ليش ؟ وعلشان إيش ؟

- مرة واحدة فقط كان شتاء من الشتوات طوبة أو أمشير والله أعلم.

قلت له:

- كان في أمشير بعد ما دفنتم مريم باللّيل.

- صحيح عرفت كيف؟

- كنت معاكم موجود.

- وين؟ ما شفتك داك الصباح، مع أن البلد اجتمعت كلها يومداك في الجامع؟

- كنت عند الشباك أظهر وأبين لحد ما قلتم ولا الضالين آمين.

- سبحان الله الرجل الغريب محيميد المسكن كان صرخ ويقول: الرجل الكان هنا راح وين؟"

- وبعدين؟

فجأة طائر الأحلام طار. اختفى ود الرواسي، واختفت "ود حامد" بكل تلك الاحتمالات وحيث كان يجلس رأيت الرجل القبرصي، سمعت صوته فانقبض قلبي سمعت الصراخ والضوضاء وارتطام الماء بجوانب المسبح، وتشكلت الأشباح على هيئة نساء عاريات ورجال عراة وأطفال يتقافزون ويتصايحون وكان الصوت يقول:

"أدفع في هذه خمسين جنهاً استرلينياً فقط".

ضغطت عيني لأصحو أكثر ونظرت إلى السلعة المعروضة في السوق كانت تلك المرأة كانت تشرب عصير برتقال في اللحظة التي قال فيها الرجل القبرصي ما قال شرقت واختنقت وهب إليها الرجل وهبت المرأة وجاء الخدم والسعاة واجتمع الناس وحملوها مغشيا عليها وكأنما ساحر أشار بعصاه السحرية، فإذا بالناس، كما خيل لي قد اختفوا فجأة والظلام أيضا كأنه كان على مقربة ينتظر إشارة من أحد، نزل دفعة واحدة أنا والرجل القبرصي وحدنا والضوء يلعب ألاعيبه على صفحة الماء قال لي بين النور والظلام:-

"بنتان أمريكيتان وصلتا هذا الصباح من نيويورك جميلتان جداً وثريتان جداً واحدة في الثامنة عشرة وهي لي والثانية في الخامسة والعشرين وهي لك. أختان تملكان فيلا في كابرينيا عندي سيارة لن تكلفك المغامرة شيئاً اسمع كلامي لونك سيعجبهن جداً".

كانت الظلمة والضوء يتصارعان حول المسبح وعلى سطح الماء وكان صوت الرجل القبرصي كأنما يزود جيوش الظلام بالسلاح لذلك أردت أن أقول له فليكن، ولكن صوتاً آخر خرج من حلقي دون إرادتي قلت له وأنا أتابع الحرب الدائرة على صفحة الماء:

"لا، أشكرك لم أحضر إلى نيقوسيا بحثاً عن هذا جئت لأتحدث إلى صديقي الطاهر ود الرواسي في هدوء لأنه رفض أن يزورني في لندن، وأعياني لقاؤه في بيروت".

ثم التفت غليه ويا هول ما رأيت أنا واهم أم حالم أم مجنون؟ جرت، جرت لائذاً بالجمع في مشرب الفندق طلبت شراباً ما وشربته لا أذكر مذاقه وشربته لا أعلم ماذا كان.. هدأ روعي قليلاً ولكن الرجل القبرصي جاء وجلس معي كان يقفز على عكازين طلب كأساً من الو سكي دبل قال انه فقد ساقه اليمني في الحرب أية حرب؟ حرب من الحروب ماذا يهم أية حرب؟ تهشمت ساقه الخشبية هذا الصباح صعد جبلاً ينتظر ساقاً جديدة من لندن. صوته إنجليزي أحياناً وتشبه لكنة ألمانية أحياناً ويبدو لي فرنسياً أحياناً، ويستعمل كلمات أمريكية:

- هل أنت...؟

- لا لست أنا بعض الناس يحسبوني إيطالياً وبعضهم يحسبونني روسياً، وبعضهم ألمانياً.. أسبانياً.. ومرة سألني سائح أمريكي هل أنا من بسوتولاند تصور ماذا يهم من أين أنا؟ وأنت يا صاحب السعادة؟

- لماذا تقول لي يا صاحب السعادة؟

- لأنك إنسان مهم جداً.

- ما هي أهميتي؟

- إنك موجود اليوم ولن تكون موجوداً غداً.. ولن تتكرر.

- هذا يحدث لكل إنسان ما أهمية ذلك؟

- ليس كل إنسان مدركاً أنت يا صاحب السعادة تدرك موضعك في الزمان والمكان.

- لا أعتقد ذلك.

شرب الكأس دفعة واحدة، ووقف على ساقين سليمتين إلا إذا كنت واهماً أو حالماً أو مجنوناً وكان كأنه الرجل القبرصي انحنى بأدب متصنع جداً وكان وجهه كما رأيته على حافة البركة يجعلك تحس أن الحياة لا قيمة لها وقال:

"لا أقول وداعاً ولكن إلى اللقاء يا صاحب السعادة".

كانت الساعة العاشرة حين دخلت فراشي تحايلت على النوم بوسائل شتى وكنت متعباً سبحت طول اليوم حاولت التحدث إلى الطاهرود الرواسي.. سألته عن قصة زواجه من فاطمة بنت جبر الدار سألته عن حضوره صلاة الفجر في ذلك اليوم المشهود سألته عن ذلك الغناء الذي كان يعقد ما بين الضفتين بخيوط من حرير، بينما كان محيميد المسكين يضرب في أليم ملاحقاً طيف مريم لكنه لم يجب . لم تسعفني الموسيقى ولم تسعفني القراءة وكان يمكن أن أخرج أذهب على ملهى أو أجلس في مشرب الفندق لا حيلة لي ثم بدأ الألم خدر خفيف في أطراف أصابع القدمين، أخذ يزحف تدريجياً إلى أعلى حتى كأن مخالب رهيبة تنهش البطن والصدر والظهر والرأس وكأن نيران الجحيم اشتعلت مرة واحدة كنت أغيب عن الوعي ثم أفيق، ثم أدخل في دوامة رهيبة من الآلام والنيران والوجه المرغب يتراءي لي بين الغيبوبة وشبه الوعي، ينط من مقعد إلى مقعد يختفي ويبين في أنحاء الغرفة أصوات لا أفهمها تجئ من المجهول ووجوه لا أعرفها مكشرة قاتمة ولم تكن لي حيلة كنت واعياً بطريقة ما ولكن لم تكن لي حلة أن ارفع سماعة التلفون أطلب طبيباً أو أ،زل إلى الاستقبال في الفندق أو أصرخ مستغيثاً كانت حرباً شرسة صامتة بيني وبين أقدار مجهولة ولابد أنني انتصرت نوعا من الانتصار لأنني صحوت على دقات الساعة الرابعة صباحاً. والفندق والمدينة صامتين اختفت الآلام إلا من إحساس بالإعياء وإحساس بيأس شامل كأن الدنيا بخيرها وشرها لا تساوي جناح بعوضة بعد ذلك نمت في التاسعة صباحا حقت الطائرة الذاهبة بي إلى بيروت فوق نيقوسيا فبدت لي مثل مقبرة قديمة.

في مساء اليوم التالي في بيروت دق جرس الباب وإذا امرأة متشحة بالسواد تحمل طفلا كانت تبكي وأول جملة قالتها:

"أنا فلسطينية ابنتي ماتت"

وقفت برهة أنظر إليها لا أدرى ماذا أقول ولكنها دخلت وجلست وقالت:

"هل تتركني أرتاح وأرضع الطفل ؟"

- بينما هي تحكي لي قصتها دق جرس الباب أخذت البرقية وفتحتها وكانت المرأة الفلسطينية تحكي لي أنباء الفاجعة الكبرى وأنا مشغول عنها بفجيعتي قطعت البحار والقفار وكنت أريد أن أعلم قبل أي شئ متى مات وكيف مات . اخبروني انه عمل في الحديثة في حقله كعادته في الصباح وعمل الأشياء التي يعملها عادة في يومه لم يكن يشكو من شئ دخل دور أقربائه وجالس مع أصدقائه هنا وهنا أحضر بعض التمر في نصف نضجه وشرب به القهوة ورد اسمي في حديثه عدة مرات وكان ينتظر قدومي بفارغ الصبر لأنني كتبت له أنني قادم . تعشى خفيفاً كعادته وصلى صلاة العشاء ثم جاءته نذر الموت نحو الساعة العاشرة قبيل صلاة الفجر فاضت روحه وحين كانت الطائرة تحملني من نقوسيا إلى بيروت كانوا قد فرغوا لتوهم من دفنه.

وقفت على قبره وقت الضحى وكان الرجل القبرصي جالساً على طرف القبر في زيه الرسمي يستمع إلي وأنا أدعو وأبتهل. قال لي بصوت كأنه ينبع من الأرض والسماء ويحيط بي من النواحي كافة:

"لن تراني على هذه الهيئة إلا آخر لحظة حين افتح لك الباب وانحني لك بأدب وأقول لك "تفضل يا صاحب السعادة" سوف تراني في أزياء أخرى مختلفة قد تلقاني على هيئة فتاة جميلة تجيئك وتقول لك إنها معجبة بأفكارك وآرائك وتحب أن تعمل معك مقابلة لصحيفة أو مجلة أو على هيئة رئيس أو حاكم يعرض عليك وظيفة يخفق لها قلبك أو على هيئة لعبة من ألاعيب الحياة تعطيك مالا كثيراً لم تبذل فيه جهداً وربما على هيأة بنت تصغرك بعشرين عاماً تتشهاها، تقول لك نذهب إلى كوخ منعزل في الجبل احترس لن يكون أبوك موجوداً في المرة القادمة ليفديك بروحه احترس الأجل مسمى ولكننا نأخذ بعين الاعتبار المَهرة في اللعب.

احترس فإنك الآن تصعد نحو قمة الجبل".

ولما تيقنت أنه كان ذلك اليوم في نيقوسيا يفاضل بيني وبين أبي، وأنه اختار أفضلنا بكيت الدموع التي ظلت حبيسة طول ذلك العهد بكيت حتى نسيت الموت والحياة والرجل القبرصي .

يَومٌ مُبَارَك عَلَى شَاطِيء أُم بَاب

"من أين يجيء البحر بكل هذا الحطب؟"

قالت رباب :

"هذا اللوح من السويد."

"كيف عرفت أنه من السويد؟"

" ألا ترى الكتابة؟ هذه الأحرف آخر كلمة" سويدن".

لم يمكث طويلاً في البحر كما ترى. لعله من صندوق سقط من سفينة."

" وهذا من أين؟."

" هذا جزء من قناة."

" من شمال افريقيا ربما من زنجبار؟.

ألا تعرف أنهم كانوا يسقفون بيوتهم بالقنا في هذه المنطقة؟ هذه القنا عمرها على الأقل مائة عام. نقلتها المراكب الشراعية ربما إلى البحرين أم عمان. على الأرجح إلى عمان".

" لماذا عمان؟".

قالت كأنني طفل بطيء الفهم:

" ألا تعرف الصلة بين عمان وزنجبار؟".

ضحكت وقالت (رباب):

" لعلهم هدموا البيت وبنوا مكانه بيتاً من الاسمنت، أو تهدَّم وحده. ألا تعرف انهم كانوا يبنون بيوتهم على سيف البحر؟".

" ما معنى سيف البحر؟"

" يعني شاطيء البحر"

" لماذا؟"

" الهواء ابرد وأيضاً لأن حياتهم كلها كانت على البحر"

" ماذا قال عنترة في القنا؟"

نظرت إليَّ نظرة عاتبة بعينيها السوداوين، كأنهما بحيرتان جبليتان عند الغروب، بين السواد والبنفسج، بين اليقظة والنعاس. كانت تحب شعر عنترة، لكنها ظنت أنِّي امتحنها فلم تجب.

جمعَ الأطفال حطباً كثيراً جعلوا من كوماً هائلاً على ساحل البحر. أوقفتهم(رباب) صفَّاً مثل طابور عسكري. وقسمتهم قسمين، قسماً أمرته أن يتجه يميناً وقسماً يتجه شمالاً. جعلت على كل فرقة قائداً، وهي القائد الأعلى. لم تكن أكبرهم سناً، وكان في الجيش ذكور، لكنهم أذعنوا لأمرتها بلا جدال.

في التاسعة من عمرها، وأشهرولدت في الصيف، والآن أول الربيع. ابنتنا الوحيدة، بل هي كل من أنجبنا، تأخرنا، لأننا ظللنا ننتظرأحدنا الآخر(الرجل) في الخمسين، (المرأة) في الأربعين. ليس خيالاً. هذا يحدث أحياناً. أغلب الناس يتزوجون كيفما اتفق لأنَّ الظروف مواتية، لأنَّ الشخص لا غبار عليه. لأنَّ العمر يمضي، إنَّما قلَّة من الأرواح المختارة يطلب بعضها بعض. لا تستقر حتى تجد أحداها الأخرى.

في المدينة، وهما سائران من الحرم النبوي بعد صلاة الفجر، في اللحظة التي رفع وجهه إليها، رفعت وجهها إليه، تماسكت عيونهما، وكان الضوء حول المآذن نبع يتفجَّرُ من تحت اقدامهما:

" أنت فلانة؟"

" نعم"

"من كيت وكيت"

" نعم"

" وأهلك كذا وكذا"

" نعم"

" من وراء أزرعات: آه. أنت أم رباب"

" وأنت فلان"

" نعم"

"من كيت وكيت وأهلك كذا وكذا. ياله من يوم مبارك. الحمد لله"

" هل تعذبت كثيراً.....؟"

" وانت..... سوف نتسلى بذلك في ليالي الشتاء الطويلة"

بعد أن اعتمرت جاءت إلى المدينة مع أخيها الأكبر وامها واختها، وكنتُ وحيداً. تزوجنا في تلك الساعة عند باب المسجد وعقدنا بعد صلاة العصر. وأولمنا ليس أكثر مما فعله الرسول في زواج ابنته فاطمة.

حملتها في تلك الليلة ووضعتها في سبعة اشهر. أردنا ان يتم الامر في المدينة حيث بدأ. جآءت مُكَمَّلة متسربلة باسمها (رباب) مثل سحاب في طيات سحاب. وجآءت لنا باسمينا. فقد كنا قبلها (فلاناً وفلانة). ولما وقفنا بها في ذلك المقام، برقت عيناها الغريبتان، وارهفت السمع لصوتٍ ناداها وحدها.

كأنها خلاصة الذُّريَّة التي لم ننجها. قامت كأنها تركض ركضاً، واستوت فارعة العود، لها عرف يتراكم على كتفها كجريد نخلة، وعيناها يجرحان كسنى برق نجدي. وصوتها له رنين مثل أجراس أديرة قديمة منقطعة في جزيرة. وكانت تتعلم كأنها تتذكر أشياء عرفتها من قبل.

انتفضت بغتةً وجرت على الشاطيء، وقفت تنظر إلى البحر. ذهبت ووقفت معها. الحبور الذي افعم قلبي منذ أول الصباح، بنى لي طرائق من الضياء، وصلت بين ضوء الضحى في السماء، والضوء في الافق، والضوء الآخر، الذي ليس هذا ولا ذاك، احياناً كأنه برتقال، واحياناً كأنه عناقيد كرم ابيض، واحياناً كأنه حب الرُّمان. قالت (رباب):

" هل تسمع الصوت؟"

قلت:

" نعم. إنما النداء ليس لنا"

انفلتت وألقت بجسمها في اليم، واخذت تسبح كما عرفتها تسبح، في ضربات قوية سريعة من ذراعيها، وساقاها تدفعان الماء كدولاب سفينة، وجسدها شفاف ينزلق على صفحة الماء كما ينزلق الشعاع على البلور. كان البحر ساكناً سكوناً مطلقاً، لا هبوب ولا موج.

لم أعلق وأنا أراها تنأى عن الشاطيء، فقد كانت تسبح ميلاً وأكثر. ابتعدت جداً، تختفي وتبين، والماء حولها كنثار القطن. تجمع الاطفال، ووقف بعض الرجال، وجآءت " الام" ووقفت على الشاطيء. ألقيت بنفسي في اليم على أثرها. فجأة قفلت راجعة. قالت وهي تضحك:

" هل خفت أن أغرق؟ هل الماء يغرق في الماء؟"

ثم سارت واشعلت النار في كوم الحطب، فاندلعت نار عظيمة، كأنها نيران آبار البترول، تحركت من مواضعها وراء التلال، وجآءت وتَلَهَّبَت على شاطيء البحر. وجاء الاطفال وتحلقوا حول النار، واخذوا يرقصون، وينشدون أناشيد بلغات قديمة منقرضة. يعلو فوق أصواتهم صوت (رباب) الكاهنة البابلية، وأقبلت سحابة، مدت ظلها قليلاً، ونثرت حبات من المطر، ثم جمعت ظلها وانصرفت.

وضعت " الطفلة" رأسها المبتل في حجر " الرجل". سكنت وعادت طفلة لم تبلغ العاشرة. مسح بيده على شعرها، وسألها برفق، حين رأى الدَّمع على وجهها:

"تبكين؟"

" أبكي من شدة السعادة. هذا يوم عجيب"

يعلم أنه يوم عجيب، بل كل أيامه عجائب، منذ وجد (المرأة) عند الباب، ووقف بالطفلة في الضريح، وسمع الصوت كأنما لأول مرة، ورأى الضوء..أصبح الحبور يسقيهم من نبعٍ لا ينضب.

" ما العجيب في هذا اليوم؟"

" لا أدري. الضوء. البحر. الصمت. ربما".

" بل أنت."

" وأنت".

" وأمل".

ضحكت ورفعت رأسها والتفتت إلى التلال ناحية اليسار، وراءها نيران آبار البترول.

" أنظر".

نظر فإذا جمل أحمر ضخم يقفُ على التل، ويُحدق في البحر، ثم يلتفت وراءه. قالت (رباب):

" الجمال تريد أن تُصَلِّي".

لكن الجمل لم يتقدم، فقد دوى في تلك اللحظة صوت مثل طلقات مدفع ثقيل. ظهر شاب يمتطي ظهر فرس من الحديد، تخرج من مؤخرته نافورة ماء، مثل النيل. كان الشاب منفوش الشعر، مربد الوجه كأنه عفريت. قالت رباب:

" أعوذُ بالله".

أدار الشاب القارب دورة حادة، ليوجهه إلى الخلف، فانقلب به، فغرق، وأخذ يغطس ويطفو ولا يستطيع السباحة. أخرجناه وقاربه من الماء، فحمله في سيارته وأختفى.

عاد الهدوء وابتسمت السماء. واشتد وهج الضوء في الأفق.

قلت لها:

" أنشديني من شعر عنترة".

ظلت ساكنة برهةً، ثم أخذت تغني بصوتها الآخر. ليس صوتها البابلي.

لمعت نارها وقد عسعس الليلُ وضلّ الحادي وحار الدليل فتأملتها وقلتُ لصحبي هذه النارُ نارُ ليلى فميلوا.

آه يا حلاوة الصوت ويالمضاضة الذكرى ويا لفداحة الشجن!. قلتُ لها وقد دمعت عيناي من كثرة الحبور:

" تحبين الشهرزورى؟"

" ابن الفارض".

" أحبّ شيء إليّ القرآن".

قلتُ لها ممازحاً وقد سألتها مثل ذلك من قبل:

" من أنت؟ من أين جئت؟".

" أنا من الله وإلى الله. أنا مسكينة فقيرة إلى الله".

" تتصوفين مثل رابعة العدوية".

تأوهت آهة طويلة وقالت:

" متى نحج؟".

" حين يجيئنا الإذن".

" هذا العام إن شاء الله. هل تعلم أن الحج هذا العام يوافق يوم مولدي؟ الوقوف في عرفات ليلة الجمعة."

" ليس عليك حج".

" بلى."

" ماذا تؤملين من الحج؟".

" حين نصل المدينة سوف ترى..".

" يكونُ ماذا؟".

" ننتظرعند الباب إلى أن يؤذن لنا بالدخول. ثم يكون ما يكون".

" أخافُ أن تضيعي منَّا في الزحام".

رفعت رأسها فجأةً وقالت:

" انظر".

رأيتُ البعير العود قد انحدر من التل وساق وراءه الجمال. دخلت البحر، وشربت، ثم جلست في الماء،قالت (رباب):

" إنَّها تتوضَّأ".

ظلت الإبل تتقلب في الماء زمناً، ثم خرجت وراء البعير الأحمر.

جلس عند البحر، فجلست وراءه وسكنت، تنظر إلى البحر. قالت (رباب):

" إنها تُصَلّي".

نهض البعير العود، ونهضت الإبل وسارت خلفه، اختفت وراء التل، الذي وراءه آبار البترول، تصعد وتهبط مثل استغاثات غريق، وبقى الجمل الكبير واقفاً على الهضبة، ينظر إلى البحر، مشرئبّاً بعنقه كمن يترقب أمراً.

لم يلبث أن جاء فوج من نسوة متلفعات بعباءات سود كنساء النجف. دخلنَ وتوضأنَ في البحر، ثم وقفن للصلاة في المكان نفسه، حيث كانت الجمال. نظرت (رباب) إليَّ. قلتُ لها: " المسافة من (أُم باب) إلى الدوحة تجيز القَصْر والجمع. نحنُ على سفر.".

قالت:

" يستطيع الانسان أحياناً أن يصَلِّي بلا ركوع ولا سجود. ألا ترى ذلك؟".

فجأة لم يبق أحد على الشاطيء. اختفى الناس واختفت النسوة. لم يبقَ غير الرجل والمرأة والطفلة، والبعير الأحمر الضخم، واقفاً على الهضبة، يراقبهم ويراقب البحر. استدار الزمان بين العصر والمغرب، ووضح الصوت،ليس الصوت الذي يتكلم به الموج، بل الصوت الذي يصدر من البحر ذاته، إذ لا هبوب ولا موج، وبدات الشمس تنزل من معارج السماء خطوة

خطوة. ومع كل خطوة، تفتح نافورةٌ من ضوء بحت، كسا السماء والأرض، وأخمدت نيران آبار البترول.

اسندت الطفلة رأسها إلى كتف الرجل، والمرأة أسندت رأسها على الكتف الآخر، وأحاطهما الرجل بذراعيه. لبثوا ينظرون إلى البحر، كمن ينتظرُ قادماً أو يودع مسافراً.

بغتةً هبَّ الرجل واقفاً، وقامت الطفلة وقامت المرأة. دخلوا البحر في وهج الضوء المحض. وهم في شغلٍ عن البعير الذي رفع رأسه أكثر. أخذوا يسمعون بلا جهد، فقد كان الضوء كأنه يمتصهم إلى جوفه. ظلوا كذلك حتى كانوا يدخلون معارج السماء. ولكن المرأة وقفت فجأة، وأوقفت الطفلة، وراحتا تناديان نداء سمعه البعير، فتحرك كأنَّه يتأهب للنزول.

سمع الرجل النداء أولاً يجيئه من امام، من ناحية الأفق. ثم كانه استيقظ وأدرك أن النداء يجيء من الخلف. وتذكر المرأة والطفلة فانقلب يريد العودة. اخذ يسبح الآن بجسمه كله. وطاقته كلها، وكأنه ثوب يتجاذبه البحر والساحل. وطاف به صوت الطفلة والمرأة،وقد صارا صوتاً واحداً ينشده نشيد الصفاء المقيم في الزمان المهاجر. فبكى بحرقة، ولم يدر هل المرارة في فمه من ملح ماء الدموع، أم من ملح ماء البحر. ولما تهيأ له أن يرى، رأى الشمس قد أخذت الأرجوان من نيران البترول ونسجت منه ملآءة ألقتها على جسد الماء.

عاد إليها، فقالت المرأة:

" إبتعدت عنَّا جداً. خشينا ألا ترجع.".

وقالت الطفلة:

" بلى. كان لابد أن يعود. نداؤنا يجيء من مصدر آخر في زمن آخر. هيَّا. علينا أن نلحق بالمدينة".

ظل البعير العود يراقبهم حتى خرجوا من الماء. ولما دخلوا سيارتهم، وأداروا محركها، وأشعلوا ضوءها، أدار ظهره للبحر، وانحدر وراء التل لاحقاً بأهله.

المقالات

درعُ أبي العلاء

يمضي الشيخ العتيد، في عبثه الممتع المفيد، وكأنّي به جالساً القرفصاء وقت الضحى، في داره المتواضعة في المعرّة، يُملي على أحد تلاميذه، وعلى وجهه السّمح المنبط، أبتسامة ماكره، وفي قلبه إحساسٌ دافئ بالسعادة كالذي يحسُّه الطفل الذكي وهو يعالج لعبة هندسية معقدة .

قال رحمه الله وهو يمعن متلذذاً في وصف الدرع:

ماذيّةٌ هَّم بها عايلٌ

من القنا لا عاسلٌ من هُذَيْل

دقّت وما رقّت ولكنّها

جاءت كما راقك ضَحْضاح فميْل

ها هو ذا الشيخ قد أنتشلنا من السّيل الذي أزعج الضب وزوجتّه وابنه، وقذف بنا في بلاد هُذيْل.

فسّر الشرّاح أن الدرع الماذيّه هي البيضاء، وأن العسل الماذيّ هو العسل الأبيض. والعاسل الأول محارب يستهدف الدرع ولا بسها. والعاسل الثاني يجمع عسل النحل في بلاد هُذيْل، وكانت مشهورة بذلك. والمقصود هنا هو العاسل المحارب لا الذي يجمع العسل. والفيْل هو الماء الضحل. هذا وقبيلة هُذيل اشتهرت بكثرة شعرائها المجيدين، ومنهم أبو كبير الهُذلي الذي قال:

ولقد وردتُ الماء لم يشرب به

بين الشتاء إلى شهور الصيِّف

الاّ عواشَلُ كالمراط معيدةٌ

باللّيل موْردّ أيّم مُتَفضِّف.

والعواسل هنا، هي الذئاب، واحدها عاسل.

وأبو كبير، يصف ماء آنا مهجوراً، لا ترده إلاّ الذئاب بالليل، وقال في أبيات تلى هذين، أنه عافه ولم يشرب منه، رغم شدّة ظمئه. وكانوا يعدّون الصبر على الظمأ خاصة، من علامات الرجولة، كما قال أبو الطيّب:

وأظمى فلا أُبدى إلى الماء حاجةً

وللشمس فوق اليعْمّلات لعابُ.

ثم يمضى أبو العلاء، فيصف أن الدرع رغم رِقتها فإنها صلبة قوية، وأنها ناعمة مثل ماء ضحل. وقالوا إن الفيل هو الماء الذي يجري بين الشجر. ثم يقول:

فمن لبِسطام بن قيس بها

ذخيرةً أو عامر بن الطُّفَيل

فارسها يسبح في لجة

من دجلة الزرقاء أو من دُجَيْل.

تصوّر فارساً، لأنه يلبس هذه الدرع، كأنه يسبح في ماء دجله أو الفرات. وقد أمعن أبو العلاء في تشبيه الدرع بالماء الجاري لنعومتها. ودجيْل، تصغيردجلة هو أحد النهرين، دجلة والفرات.

وفسّر الخوارِزْمي، أن بِسطام، بكسر الباء، هو بسطام بن قيص فارس بكر، وكان من فرسان العرب المعدودين في زمانه. وقتله عاصم بن خليفه الضبّى.

وكان عامر بن الطُّفيْل من أشجع أهل زمانه وكان يُلقّب بمُلاعِب الأسِنّة. وهو القائل:

وإنى وإن كنت ان سِّيد عامرٍ

وفارسها المشهور في كل موكب

فما سوّدتْني عامرٌ عن وراثةٍ

أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

وكان حين يجتمع الناس للموسم بعكاظ يرسل منادياً ينادى في الناس:

"هل من راجل فأحمله؟ أو جائع فأطعمه؟ أو خائف فأؤمِّنْه؟"

ويقول أبو العلاء إن هذين الفارسين المعُلّميْن، لو كانت لهما مثل هذه الدرع، لما قتلا كما حدث لهما.

ثم يقول:

أعدّها الشيخ معَدٌّ لما

يطرقُه من لفّ خيلٍ بخيل

كانت لهودٍ عُدّةَ قبلَ

أديان يهودَ حدّثت من قُبيْل

الشيخ معد، بفتح العين أو سكونها، هو ابن عدنان، من آباء العرب الأولين وكان مشهوراً

بالذكاء وحدة الذهن والتقشف في المعيشه. وقول أبى العلاء (من لفّ خيل بخيل) يشير إلى قول الفرار السُّلمى :

وكتيبةٍ لبَّسْتُها بكتيبةٍ

حتّى إذا التبسْ نفضتُ لها يدي.

قال الشارح (وهذا من فصيح الكلام وبديعه). وهو كذلك لعمري. وقول أبى العلاء (لفُّ خيلَ بخيل) غايةً في الحُسن أيضا.

أراد أبو العلاء أن الشيخ معد، أعد هذه الدرع لحروبه حين تلتف الكتيبة بالكتيبة في غمار المعارك. وكانت قبله عند هود الذي جاء ذكره في القرآن الكريم، وقد سبق ديانات اليهود.

وكلمة قبيل، تصغير قبل، ثم يقول:

تُعلَّم الزُّمْيلَ ضرب ابن

دارة المنايا كسجايا زُمَيْل.

وقال الخوارزمى:

"الزّميْل هو الرَّذْل الجبان. وابن داره هو سالم بن دارة، ودارة اسم أمه، سميت بذلك لجمالها تشبيهاً لها بدارة القمر، وكانت من بنى أسد. وابن داره من ولد عبد الله بن غطفان بن سعد. وكان هجا بعض بني فزارة هجاء فاحشاً، فقتله زُميل بن ابير وقال مفتخراً:

أنا زمْيلٌ قاتلُ ابن داره

وغاسلُ المخزاة عن فزارة.

يقول أبو العلاء رحمه الله، أن رجلاً تافهاً صادف اسمه وصفه (زميل) جرَّأته هذه الدرع على قتل رجل شريف هو ابن دارة، وأن تلك عادة المنايا، تأخذ الشريف وتترك الرَّذلَ الزّميل .

أبو العلاء وعقيل

لبس الرجل تلك الدّرع المُحْكمَة النسج الليّنة الملمس، فوجد في نفسه القوة والشجاعة والإقدام، وأخذ يضرب في الأرض يطلب الكسب لزوجه وعياله، قال أبو العلاء:

أُسِيل مَآقَ العِيسِ في أكحلٍ
تنضح ذِفْراها بمثل الكُحيْل
عن نفَلٍ أسأل أو حَنْوة
سؤالَ مُزجى فيله عن نُفيْل
والمرءُ يحتالُ ويفتالُ ما
عاش ويأتال بقصْد وميْل

قال الشارح إن الإبل إذا تعبت من شدّة السير، تسيل مآقي عيونها بدمع إذا جفّ صار أسود مثل الكُحيل أي القطران، بعكس الخيل التي إذا جف دمعها صار أبيض، وقوله (في أكحل) أي بحثاً عن نبات أخضر.

وفسر الخوارزمي أن النَّفَل ضرب من الشجر والحنوة بفتح الحاء المهملة نبت طيب الرائحة. ونفيل تصغير نفل وهو أيضا نفيل بن حبيب سيد خثعم وكان دليل أبرهة الحبشي حين سار بالفيلة نحو الكعبة ليهدمها.

والمرء يحتال، من الحيلة، ويفتال من الفيل، ويأتال، من آل يئول، إذا ساس، كل ذلك طلباً للرزق والفلاح والسؤدد لعياله.وقد أوضح الشاعر أكثر في قوله:

والودُّ غرّارٌ ونجوى عليّ
ولديه غير نجوى كُميل.

عليّ هو ابن أبي طالب رضي الله عنه.وكان كميل بن زياد النّخعي من أصحابه المقرّبين، قتله الحجّاج بن يوسف.ويقول الخوارزمي في شرح البيت أن الإنسان مشغوف بأبنائه لا ينزل أحداً منزلتهم ولذلك تراه أبداً يسعى لهم بجد واجتهاد.ويضيف الشارح:

(كأنه قال هذه اللّاميّة على لسان رجل قام على نفقة عياله).

ربما ذلك، أوربما اشتاق أبو العلاء للزوج والأبناء!

من حبّ عبد الدّار ما أبعدت
حبّي أخاها عن وصايا حُليْل

هذا البيت يختصر قصة عجيبة في حبّ الآباء للأبناء، والقصّة تتعلّق بسدانة الكعبة في الجاهلية.كانت لخزاعة وكان سيد خزاعة حليْل بن حبيْشة.وكانت ابنته حبّى متزوّجة من قصيّ

.بن كلاب من سادة قريش ولها منه أبناء منهم عبد الدار ابن قصيّ
لمّا حضرت حُليْل بن حبيشة الوفاة أوصى بحجابة الكعبة إلى ابنه المحترش وكان غائباً، وأعطى المفتاح إلى ابنته حبى وأوصاها أن تسلمه إلى أخيها المحترش وأشهد على ذلك رجلاً يدعى .أبا غبشان الملكاني وابنها، حفيده عبد الدار بن قصي
فلما رأى قصي أن حليلاً قد مات، وكان أبناء حليل غيباً عن مكة لوباء أصابهم، طمع قصي أن يجعل سدانة الكعبة عند ابنه عبد الدار، وأخذ يلح على زوجته حبى وكانت هي أيضا تميل .إلى أن تعطي السدانة لابنها عبد الدار
:فقالت لزوجها قصي
كيف أصنع بأبي غبشان وهو وصي معي وشاهد علي؟
فقال لها زوجها قصيّ:- (سوف أكفيك أبا غبشان.سوف أحتال عليه وأرضيه حتى يكتم ذلك .(ويخبر الناس أن حليلاً أوصى بسدانة الكعبة إلى ابن ابنته عبد الدار
وكذلك فعل قصي مع أبي غبشان وأعطاه ثياباً وأبعده فقبل.وقال الناس (أخسر من صفقة .أبي غبشان) فسارت مثلاً
:وقال شاعر في ذلك
أبو غُبشانَ أظلمُ من قصيّ
وأظلمُ من بني فِهْرٍ خُزاعة
فلا تلْحوْا قصيّاً في شِراه
.ولوموا شيخكم إذْ كان باعه
:قال أبو العلاء رحمه الله
والدهرُ إعدامٌ ويسرٌ وأبْ
رامٌ ونهارٌ وليْل
يُفني ولا يَفنَى ويُبلي ولا
يبلى ويأتي برخاء وويل
يُدعى الفتى ضبّا وفيه ندى
وواهباً وهو عديم لنَيْل
بعد أن تكون ظننت أن أبا العلاء قد فرغ من القصيدة وختمها ببيتين عن الدهر وتقلب أحواله، إذا هو يفاجئك أنه يعود إلى لعبه وجده الذي يشبه المزاح.ويأبى إلا أن يذكرك بالضب !الذي بدأ به القصة، هو وحسيله وأم الحسيل
يخبرك أن الفتى قد يسمى (ضبا) وكانوا يسمون أبناءهم بأسماء الحيوانات.والضب يكره الماء وينفر منه.إنما هذا الضبّ الآدمي، ففيه ندى، أي أنه كريم، والندى أصلاً من الماء.والآخر :أسمه واهب وهو في الحقيقة بخيل.ثم يقول

إن كليباً كان ليث الشرى

والهجرس الخادر من غير فيل

كليب هو سيّد وائل الذي حرم مواقع القطر وأجار القبرة التي بسببها اشتعلت حرب البسوس نحو أربعين عاما.وكان يضرب به المثل في العزّة والمنعة فكان يقال (أمنع من كليب وائل).ورغم ذلك كان اسمه كليب وهو تصغير كلب.

والهجرس تعني الثعلب، وهو اسم ابن كليب، الذي نشأ في كنف خاله جساس بن مرة، ولما كبر وعلم أن خاله هو قاتل أبيه، قتله أخذاً لثأره.

كم ظبية في أسد تعتزى

وجاهل منتسب في عقيل

هي ظبية لكنها بنت أسد، وهو جاهل لكنه من عقيل.وأسد وعقيل قبيلتان.

ويبدو أن أبا العلاء كان معجباً بعقيل، فقد قال يصف فتاة:

تجل عن الرهْط الإمائيّ غادة

لها من عقيل في ممالكها رهْطُ

والرهط الإمائيّ إزار من سيور الجلد كانت تلبسه الإماء والفتيات دون البلوغ .

إعصْار من الطّيب

قال الشاعر القرم في تلك القصيدة، التي هي عندي من روائع الشعر العربي، يصف الفتاة المحبوبة:

إذا حملتكِ العيْس أوْدى بأيْدها
جلا لُكِ حتى ما تكاد به تخطو

والبيت من القصيدة التي يمدح فيها خازن دار العلم ببغداد ومطلعها:

لِمَن جيرة سيموا النّوال فلم ينطو
يظلّلهم ما كان ينبته الخطّ

وقد ركب أبو العلاء فيها قافية حرونا فذ لّلها وأسلس قيادها.

قال التبريزي في شرح البيت:

(الأيد القوة، والجلال العِظَم أراد به ها هنا وفور الجسم).

وقال البطليّوسى:

أودى، ذهب وهلك. والأيد القوة. والجلال ها هنا وفور الجسم وكثرة لحمه. يقول، (إذا حملتك العيس ذهب بقوتها ثقل ردفك ووفور جسمك فلا تقدر على الأسرع في المشي).

وقال الخوارزمي:

عنى بالجلال فخامة الجسم وضخامة البدن. الضمير في (به) يرجع للجلال. (هذه السمينة المنعمة لو أدركت زمن محمد بن باه الخوارزمي، لما كانت له معشوقة غيرها، وذلك أن محمدا هذا كان من كبراء خوارزم وأمرائها، وقد بلغ به السمن والضخامة إلى حيث لم يستقل به مركوب ولا قدر هو نفسه على الركوب. وإنما كان يحمل في عجلة...).

وأقول، رغم احترامي العظيم لهؤلاء الأساتذة الأعلام الأجلاء، هل يعقل أن يكون حنين الشاعر كل ذلك الحنين الممض، لامرأة تعجز الإبل الشداد عن حملها لضخامتها وكأنها من نساء الكاتب الفرنسي القديم (رابلى) أو بعض نساء الأمريكان في هذا الزمان؟

فلنمعن النظر في بقية أوصاف المرأة المشتهاة لنرى هل يوافق وصف الشاعر لها أوصاف هؤلاء الأساتذة.

منذ البداية، يصف الشاعر المرأة المعشوقة بأنها تعيش في عزة ومنعة تحت ظلال السيوف والرماح، وهي كالتي وصفها أبو الطّيّب بقوله:

وما شرقي بالماء إلا تذكراً
لماء به أهل الحبيب نزول

يحرمه لمع الأسنة فوقه

فليس لظمآن إليه وصول

.امرأة كهذي، قد تكون مرفهة، ولكنها لا تكون خاملة

:ويقول أبو العلاء أيضا في وصفها

تجل عن الرّهط الإمائيّ غادةٌ

.لها من عقيل في ممالكها رهط

وصفها الشاعر بالجلال، ونزهها عن أن تلبس (الرهط) الّذي تلبسه الإماء، وهو أزار من سيور الجلد كانت تلبسه الإماء والفتيات دون البلوغ. إنها امرأة شريفة من (عقيل) وهي قبيلة عزيزة أصلا ولها في قومها عزة وكبرياء. وقد اتفق الشرّاح الأجلاء على أنها ربما تكون من بنات الملوك. وليس من صفات الشرف، أن تكون المرأة خاملة جامدة الحس، تعيش مثل البهائم، مهما .بلغت من الغنى والترف

:ثم يقول الشاعر

قُرِيْطيّة الأخوال ألمع قرطها

فسرّ الثريّا أنها أبداً قرْط

هذه فتاة أصيلة (بنت قبائل) كما نقول ؟ أخوالها في قريط أو قريطة، من كلاب بن ربيعة بن عامر ابن صعصعة. وقد بلغ من عظمة هذه الموصوفة أن كوكب الثريا، سرّها أن تشبّه .بالقرط الذي يلمع في أذن الموصوفة

:فسر البطليّوسي بقوله

وشبه الثريّا بها في شكلها وامتناع مكانها من الوصول إليه، وفي قوله (أبداً) إشارة إلى قول ابن) :المعتز في وصف الثريّا

في الشرق كأس وفي مغاربها

قرط وفي وسط السماء قدم

فشبهها وقت طلوعها بكأس، ووقت غروبها بقرط، ووقت توسطها في السماء بقدم. فولد أبو العلاء معنى آخر فقال إن الثريّا لما رأت قرط هذه المرأة، سرها ألا تشبّه في جميع أحوالها إلا (...بالقرط دون غيره مما شبّهت به

:قال أبو العلاء مواصلاً وصف الفتاة

إذا مشطتها قينة بعد قينة

تضوّع مسكا من ذوائبها المُشطُ

ربما لكثافة شعرها، لا تمشطها قينة واحدة، بل تشمطها قينة بعد قينة، وكل مرة يتضوّع .المشط من المسك العالق بشعرها

هذا، وقد ذكروا أن كلمة (مشط) تكون بفتح الميم وسكون الشين، وكسر الميم، وضم الميم مع

.سكون الشين، وضم الميم والشين
:قال أبو العلاء
تقلّد أعناقَ الحواطب بالدّجى
فريداً فما في عُنق ما هنةٍ لَ َطّ
الماهنة هي الخادمة، واللطّ، يعني الحلىّ المزيّفة التي تشبه الحلىّ الحقيقية. يقول الشاعر أن هذه السيدة الفاضلة من شدة كرمها وعنايتها بالماهنات اللائي يخدمنها، تلبس حتى اللائي يجمعن الحطب بالليل، حليا حقيقية مصنوعة من الذهب. وبالليل لا يراهن أحد، فالأمر ليس !للتظاهر
:هذا وكأنما الخوارزمي فجأة استفزه الطرب لجمال الوصف فقال
هذه الحبيبة موسرة كثيرة النعم، شريفة رفيقة الهمم، تقلد إماءها عقود الفرائد، ولا ترضى) .(لهن بالدون من القلائد
ويرفع إعصار من الطّيب لا يرى
عليه انتصار كلما سحب المرط
أجارتنا إن صاب دارة قومنا
ربيع فأضحى من منازلنا السنط
إذا حملتك العيس أودى بأيدها
جلالك حتى ما تكاد به تخطو
كلما رفعت مرطها ثار إعصار من العطر لا يقاوم. وقوله (إن صاب دارة قومنا ربيع) أراد أن الربيع أصاب بلاد الشاعر فأخصبت فانتجع إليها قوم المحبوبة، فأصبحوا جيرة. والسنط .والسلط، بالنون واللام بلدة موجودة إلى اليوم في الأردن
وحين نصل إلى هذا الحد من الوصف، يتأكد لدينا أن الشاعر حين قال في وصف المحبوبة (أودى بأيدها جلالك) فإنه لم يقصد بدانة المرأة وضخامة جسمها وإنما قصد جمالها .وجلالها
!ولا يخفى أن الجمال والجلال لهما وزنٌ ووطأةٌ تحسّ بهما الإبل كما يحس البشر
:وقد صدق الخوارزمي حين لمع المعنى في خاطره فجأة فقال
هذه الحبيبة موسرة كثيرة النعم، شريفة رفيقة الهمم، تقلد إماءها الفرائد ولا ترضى لهن) .(بالدّون بالقلائد

في تذكر نجيب محفوظ

رحم الله نجيب محفوظ .. عاش أربعة وتسعين عاما، وكتب أكثر من خمسين رواية ومجموعة قصصية. أمهله، القدر حتى أكمل مشروع حياته وبلغ الذروة في عطائه، وضع لنفسه ولأمته مجداً شامخاً باذخاً.

كان أكثر ما يعجبني فيه النظام الصارم الذي ألزم نفسه به. يصحو في موعد محدد، وينام في موعد محدد. يؤدي عمله الوظيفي – وكان دائما يعمل في وظيفة رسمية – ويجلس للكتابة كل مساء في وقت محدد. يقابل أصدقاءه ومديريه، ويتسكع في حارات السيدة زينب والحسين التي عرفها وارتبط بها. نذر نفسه كلية للكتابة، طوال أيام الأسبوع إلا يوماً واحداً، كما نعلم من أصدقائه المقربين أمثال الأستاذ رجاء النقاش، والأستاذ جمال الغيطاني، كان الأستاذ نجيب يفرغ نفسه للكتابة عدداً محدداً من الساعات، أي إنسان جرب صناعة الكتابة، يعرف كم هو مؤلم وممض هذا النضال اليومي مع عالم التصورات والأفكار.

لا يوجد في الأدب العالمي كله، فيما أعرف، كاتب نذر نفسه للفن وجعل حياته كلها وقفاً عليه، إلا كاتب واحد، هو الروائي الفرنسي (بلزاك) الذي كان يوصف بأنه (ماكينة كتابة). لذلك لم يكن عجيباً أن الناقد العربي النابغة الراحل إدوارد سعيد، شبه نجيب محفوظ ببلزاك، وأضاف إليه فلوبير وتشارلز دكنز.

بلزاك ودكنز احترقا مبكراً في محراب الفن وماتا في أوائل الخمسينيات من العمر. كانت حياة كل واحد منهما فوضى. بلزاك لم يتزوج ولم ينجب. وشارلز دكنز عاش حياة عاطفية ممزقة كل واحد منهما دفع ثمناً باهظاً للإنتاج العظيم الذي تركه.

وفي الأدب العربي المعاصر، يخطر على بالي ثلاثة كتاب، كان كل واحد منهم عظيم الموهبة لكنه لم ينتج بالقدر الذي بشرت به موهبته.

الكاتب الأول هو الراحل/ محمود المسعدي التونسي. كان في تقدير أغلب العارفين ذا موهبة عظيمة، لكنه لم يشأ أن يدفع الثمن الذي يقتضيه الفن، ودخل في معترك السياسة والحياة العامة في تونس، وتوفي عن أكثر من تسعين عاماً، ولم يترك سوى أربعة أو خمسة أعمال.

الثاني هو الكاتب المصري الراحل/ يحي حقي. كان نادر الموهبة. لكنه اختار ألا يلتزم بالفن التزاما كاملاً، ويستجيب لندائه استجابة قاطعة. كاتب يكتب حين يحلو له. كتب أشياء قليلة نسبياً لكنها عظيمة الجمال، وعاش حياة خصبة متنوعة النموذج. الثالث هو الراحل/ يوسف إدريس. كان بإجماع الناس، صاحب موهبة عظيمة. لكنه لم يحسن استغلالها وبدد جزءاً

كبيراً منها في حياة لم تخل من الفوضى والتهور. ورغم ذلك ترك وراءه إنتاجاً وإن كان قليلاً نسبياً، فهو إنتاج فيه سمات العبقرية. إنني التقيت بالراحل/ نجيب محفوظ مرة واحدة، وكان ذلك في القاهرة أوائل الستينيات. التقيت به في ندوة (الحرافيش) الشهيرة. كانوا يجتمعون مساء كل خميس، كما أذكر، في دار حسن كامل – إذا لم تخني الذاكرة – كان كاتباً موهوباً. ولكنه ترك الكتابة بعد عملين أو ثلاثة وتفرغ لمهنة المحاماة.

ذهبت مع (منسي بسطاوروس)، وخطر لي فيما بعد أن (منسي) كعادته ربما قد ذهب إلى ندوتهم متطفلاً، واقتحمها عليهم اقتحاما. كان صديقه من الموجودين الراحل/ صلاح جاهين، وكان أكثرهم تلطفاً معنا وحفاوة بنا. وكانوا كلهم في الواقع لطيفين كرماء، لكنني أحسست أنهم لم يكونوا على سجيتهم تماماً.

كان ذلك الوقت في مصر، في الستينيات، زمن توجس وحذر وارتياب، وكنت أنا أعمل يومئذ في هيئة الإذاعة البريطانية، ولم أكن معروفاً بأنني كاتب إلا لقلة من الناس في مصر.

وكان (منسي) قد عاد إلى القاهرة من لندن منذ وقت قصير ووجد لنفسه عملاً في الجامعة الأمريكية.

كان يتعمد الحديث بلغة إنجليزية متقعرة، ويسعده جدا أن يثير الشكوك حول نفسه ولا يبالي حتى إذا قيل أنه جاسوس.

كانت مجموعة صغيرة أذكر منهم غير صاحب الدار والأستاذ نجيب محفوظ والأستاذ صلاح جاهين، أذكر الممثل الشهير أحمد مظهر. كان يوجد شخصان آخران ضاع مني اسماهما.

أجلسوني كرماً منهم، بجوار الأستاذ نجيب، إذ أنني كما قلت لم أكن كاتباً معروفاً. وكان (منسي) واقفا طول الوقت، يتحدث بلهجة خطابية، بالعربية أحيانا، وبالإنجليزية في أغلب الأحيان، كان يثير شغباً عظيما ويريد، كما هو واضح أن يترك أثرا قوياً. وكان الأستاذ نجيب قليل الكلام.

الشخص في تلك المجموعة الصغيرة، الذي كان يعرف (منسي) أكثر ويحبه، وعارف للعبة التي يلعبها (منسي) كان صلاح جاهين أنا أيضا كنت أعرف صلاح جاهين، بقدر أقل من (منسي)، وقد عرفته أكثر فيما بعد وأحببته.

أردت أن أستفز الأستاذ نجيب للكلام، وكنت قد قرأت لتوي روايته (اللص والكلاب). قلت له إنني أعجبت بها، ولم يبد عليه أنه اهتم كثيراً لقولي، كما ظننت. قلت له إنها ذكرتني بمسرحية (هاملت) لشكسبير. أجابني فوراً بشيء من الحزم، وكأنه استيقظ من غيبوبة: (أزاي بقى؟ دي كلها أكشن. هاملت ما فيهاش أكشن خالص).

وقبل أن أقول شيئا، سارع (منسي) فالتقط خيط الكلام، وأعطاهم محاضرة عن أن (هاملت) مليئة بالأكشن. وكان يتحدث باللغة الإنجليزية في الغالب، ويضرب أمثلة من مسرحية شكسبير، بعضها حق وبعضها باطل.

ولما أطنب وأطال والأستاذ الكبير نجيب محفوظ صامت لا يقول شيئا، قال له صلاح جاهين بلطفه المعروف:

.(إحنا مش قد الإنجليزي دا كله يا دكتور!)

وهكذا أضاع عليّ منسي متعة الاستماع إلى الأستاذ الكبير في تلك الليلة التي لم تتكرر لسوء الحظ، والأستاذ نجيب كما يقول كل من يعرفونه محدث بارع وصاحب طرافة ونكتة. إنني، بما في طبعي من الحياء، غلب علي الحرج، إن (منسي) فرض نفسه وفرضني على أولئك القوم الكرام في خلوتهم، مثل الضيوف المتطفلين الذين يصفهم الجاحظ في كتابة (البخلاء).

أما (منسي) فلم يكن يبالي. كان يحس أن له دعوة مفتوحة على مائدة الحياة، أينما تكون وعند من تكون.

السودان .. حكم استعماري من نوع جديد

.لم يمض وقت طويل حتى بدأ يظهر في بلاد السودان، حكم استعماري من نوع جديد *
يقول (سير هارولد ماكمايكل) في كتابه (السودان) الذي ترجمه ترجمة ممتازة الأستاذ محمود صالح عثمان صالح، وأصدره مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي: (كان المتبع في سياسة الحكم البريطاني في السنوات الأولى، هو ترك مجتمعات القبائل والقرى تدير شؤونها بنفسها. وذلك لأسباب ثلاثة. في المقام الأول لم يكن هناك خيار عملي آخر نسبة لقلة الموظفين. وثانياً فقد كان نظام الحكم الأبوي متعارفاً عليه في المجتمعات القبلية بوجه الخصوص وفي مجتمعات أخرى.

وثالثاً كان زعماء القبائل في المناطق البعيدة رجالاً أقوياء وذوي نفوذ ولن يرضوا بأي محاولة تسلبهم سلطانهم، وسيجدون المبرر لمعارضة مثل تلك المحاولات في الوقت الذي كانت فيه الحكومة ترغب في تعاونهم وليس في عدائهم ..).

ويمضى سير (هارولد ماكمايكل) فيذكر أن الحكومة في بداية عهدها في ذلك الوقت، لم تكن قد حددت هدفها بالنسبة للنظام السياسي المستقبلي، وإنما انشغلت فقط باستتاب الأمن وترسيخ مبادئ العدالة. ثم يضيف: (كان هناك ميل لدى بعض الدوائر (البريطانية) من ذوي العقول الديوانية ومن موظفي مناطق النيل الشمالية حيث كانت سلطة القبائل ضعيفة، للتطلع إلى اليوم الذي يربط فيه السودان بشبكة من المكاتب تعج بأعداد غفيرة من الموظفين والإداريين والمحاكم القضائية والروتين وكل ما يتبع ذلك من مقتضيات نظم الحكم الحديثة ..).

هذا النظام (البيرقراطي) لم يطبق أبداً في السودان. أنشأ الإنجليز جهازاً إدارياً صغيراً جداً بالقياس إلى المساحة الشاسعة للقطر. وكان عدد الموظفين البريطانيين أقل من خمسمائة موظف. كانت لكل واحد منهم سلطات واسعة، وكان قطب الرحى هو الحاكم العام. وتحت هؤلاء يأتي النظار وشيوخ القبائل وهي المؤسسة التي تطورت منذ مملكة (سنّار) وكانت هي الحكومة الفعلية في مختلف العهود وقد أدرك الإنجليز من أول وهلة، أنها مؤسسة للحكم قليلة التكلفة. فتركوها على حالها. يقول (ماكمايكل): (تم تطوير وتعديل الدستور، ولكن السلطة العسكرية والمدنية التي منحت للحاكم العام وحده بموجب اتفاقية الحكم الثنائي لم يطرأ عليها أي تغيير، الأمر الذي ضمن نوعاً من الاستقرار والاستمرارية. وحتى عام ١٩١٠ لم يكن هناك مجلس تشريعي أو استشاري أو تنفيذي رسمي. كان السردار، الحاكم العام، حاكما

مطلقا. وكانت الحكومة تدار على نمط عسكري، وكان السكرتير الإداري والسكرتير المالي والسكرتير القضائي ومديرو المصالح ومديرو المديريات، موظفيه وقادته الميدانيين. ثم بعدها اتخذ قرار (بتقنين الممارسة غير الرسمية، بخلق مجلس للحاكم العام لمساعدته في تصريف مهامه التنفيذية والتشريعية ..).

ومع مرور السنين نمت أواصر وارتباطات بين الموظفين البريطانيين أنفسهم في السودان، أقرب ما تكون بالأواصر القبلية. وكان زعيم هذه القبيلة العجيبة هو الحاكم العام. وقد أحسن الحكّام البريطانيون فهم الطقوس القبلية في السودان وأعرافها وأحسنوا استغلالها. وجاء وقت أصبح فيه التعامل بين الحاكم العام وزعماء القبائل، كأنه تعامل بين أنداد. يقول (ماكمايكل): (إن العامل الأهم في تحقيق تلك النتيجة كان الولاء التام للحاكم العام من كافة الموظفين البريطانيين. لم يكن تعيين الحكام العامين تعيينا سياسياً مؤقتا، إنما كانت خدمتهم في السودان تغطي تقريباً كل فترة حياتهم العملية دون احتمال أو رغبة في التحول للعمل في مكان آخر.

لم تكن هناك وزارة أو مصلحة في لندن تتحكم في مصائرهم أو في أعمالهم نظرياً أو فعليا. كما لم تكن هناك محاسبة برلمانية لهم. وفيما عدا أعلى المجالات لم تكن تقدم في البرلمان أسئلة كثيرة عن السودان.

وحتى إذا ما قدمت، فإن وزارة الخارجية كانت هي الجهة المدنية الوحيدة التي تتولى الرد نيابة عنهم. ومما يبعث على الارتياح أنه كان يكتفى بالقول إن الأمر متروك لقرار الحاكم العام ..).

ويلخص (ماكمايكل) الوضع كما كان قائما في هذه الفقرة الواضحة ذات الدلالات البعيدة: (وهكذا نشأت هيئة مؤتلفة من الموظفين الذين يقدمون خدماتهم للدولة طواعية غير مكبلين بأي نوع من الاستبداد، وغير مشغولين سوى بعملهم وهواياتهم وأسرهم، ويدينون بالولاء المخلص لرأس الدولة الذي يجسد القيادة والسلطة (الحاكم العام).

(للحديث بقية)

نحو أفق بعيد : الإنسان المعتدي أفسد الحياة ليس على نفسه فقط

* عاش الإنسان زمناً، ينتهب من خيرات الأرض بلا حساب، كأنها كنوز أبدية لن تنفد. أعطاه الله سبحانه وتعالى كل ما يحتاج إليه. أعطاه الأرض والسماء والبحار والغابات والأسماك والحيوانات والطيور والنباتات.جعله خليفة في الأرض، يأخذ منها بمقدار. يعيش في توازن ووفاق مع عناصر الحياة على الأرض.وكذلك مضت الحياة آماداً طويلة، ثم فجأة ارتبك التوازن واختل النظام. وكان الإنسان هو المعتدي. ووصل عدوانه الذروة بعد الحرب العالمية الثانية. غرّته الاكتشافات العلمية المتلاحقة التي أحرزها.وبدلاً من أن يستغلها في تحسين حياته، أخذ ينتهك حرمة الأشياء واحداً تلو الآخر. ملأ الجو بالسموم والدخان، وصب في البحار النفايات الملوثة من المصانع. دمر مساحات واسعة من الغابات، وهي الغابات التي تمده بالأوكسجين الذي يتنفسه، لوث الإشعاعات الذرية الفتاكة، ولوث الأرض بأسلحة حروبه البشعة. أفسد الحياة ليس فقط على نفسه، ولكن على الأسماك في البحار، والطيور في الجو، والنباتات وكل شيء حي في المروج والغابات. وأكثر ما حدث هذا الانتهاك، كان من الإنسان الأكثر حظا، من الدول الأكثر تقدماً وثراء. بدأت الطبيعة تستجيب لهذا العدوان. بدأت تحدث ظواهر جديدة. ارتفعت درجة الحرارة، وبدأت الثلوج القطبية التي ظلت جامدة منذ بدء الخليقة، بدأت تذوب، أخذت تحدث فيضانات لم تكن تحدث من قبل، وأحيانا فترات جفاف طويلة، بدأت بعض أنواع الحيوانات والنباتات تنقرض وتظهر أوبئة وأمراض غامضة.انتبه بعض الناس لهذه التحولات الخطيرة. بعض الدول بدأت تهتم بأمور البيئة، وانعكس هذا الاهتمام على منظمة الأمم المتحدة، نشأت أحزاب تسمى (أحزاب الخضر) انصب اهتمامها على شؤون البيئة. إنما هذا كله لم يرق إلى مستوى خطورة الموقف. في أثناء ذلك ظل العلماء والمهتمون من قادة الرأي، يرفعون أصواتهم منبهين الشعوب إلى خطورة الأمر. وقال بعض العلماء، إن البشرية إذا لم تفعل شيئا حاسماً لتغيير سلوكها والتعامل باحترام أكثر مع موارد الطبيعة، فإن حياة الإنسان على الأرض لن تستمر أكثر من خمسين عاماً.

هذا ومن دلائل الاستجابة لهذه الإنذارات، أن الحكومة البريطانية قد أصدرت منذ أيام تقريراً شاملاً أعدة اقتصادي مرموق كان إلى وقت قريب كبير الاقتصاديين في البنك الدولي هو (سير نكولاس ستيرن).

يقول التقرير إن على العالم أن يبدأ العمل فوراً بجد، لتلافي أخطار تغير المناخ، وإلا فإنه سوف يواجه نتائج اقتصادية مدمرة، وإن الكربون الذي ينفث في الهواء (من السيارات وغيرها) رفع درجة الحرارة بمقدار درجة سِلسِيَس، وإذا لم يعمل شيء لإيقاف ذلك، فإنه يوجد احتمال بمقدار ٧٥ في المائة أن معدلات درجة الحرارة في العالم سوف ترتفع بمقدار درجتين إلى ثلاث درجات خلال سنة القادمة، ويوجد احتمال بمقدار ٥٠ في المائة أن درجة الحرارة سوف ترتفع بمقدار خمس درجات سِلسِيَس.

ويضيف التقرير:

(الثلوج القطبية الذائبة سوف تزيد من خطر الفيضانات، وأن إنتاج المحاصيل الزراعية، خاصة في إفريقيا سوف يهبط، وأن ارتفاع مستوى مياه البحار (التي سوف تغمر مساحات واسعة من الأراضي) سوف يجعل مائتي مليون إنسان، مشردين بلا مأوى بشكل مستديم.
ويضيف التقرير قائلا:

(التغير الحاد للطقس، قsد يخفض معدل الإنتاج الاقتصادي بمقدار ١ في المائة، وأن ارتفاع درجة الحرارة بمعدل ثلاث درجات، قد يجعل الإنتاج الاقتصادي في العالم يهبط بمقدار ٣ في المائة.

وفي أسوأ الحالات المنتظرة، سوف يهبط استهلاك الفرد بمقدار ٢٠%.

هذا ويقدم التقرير هذه الخيارات للتغيير:

١-تخفيض الطلب على السلع التي تسبب تلوثا ملحوظا.

٢-جعل إمدادات الطاقة في العالم أكثر فعالية، وتشجيع استعمال مصادر الطاقة النظيفة، على أن يخفض من استعمال البترول ومصادر الوقود المعدنية بمقدار ٦٠% بنهاية عام ٢٠٥٠.

٣-التعاون مع البنك الدولي وغيره من المؤسسات المالية، على إنشاء رصيد من عشرين بليون دولار لمساعدة الدول الفقيرة لمعالجة نتائج تحولات الطقس.

٤-التعاون مع البرازيل و(بابوا نيوقني) وكوستاريكا، لتنمية الغابات ومنع التصحر.

هذا، ورغم أن التقرير يخص أساسا الحكومة البريطانية، لكنه يؤكد على ضرورة مواجهة خطر تغير المناخ مواجهة جماعية من كل الدول. ولا يخفى أن الولايات المتحدة تقع عليها أكبر المسؤولية في تلوث البيئة، ورغم ذلك رفضت أن توقع على معاهدة كيوتو التي وقعت عليها سائر الدول.

يقول سيرنكولاس ستيرن معد التقرير:

(إننا لا نزال نملك الوقت والمعرفة لعمل شيء، ولكن بشرط أن نعمل مجتمعين ونعمل بجد وعزيمة، ونعمل بشكل عاجل)

عيد الميلاد

* من العادات الحسنة عند الإنجليز – وكذلك بقية الأوروبيين – أن رغبتهم في البذل وعمل الخير تتحرك في مثل هذه الأيام، في محطات السكك الحديدية، وفي الشوارع والميادين العامة، وأمام أبواب المحال التجارية، وأحياناً يطرقون أبواب البيوت – جوقات من المنشدين، صبية وبنات، ومعهم موجهون من الرجال والنساء، يعترضون المارة بترانيمهم الجميلة، بعضهم لم يتجاوز السابعة من العمر وكل واحدة او واحد، يحمل علبة يضع فيها ما تجود به نفسك.

وجوه غضة، وعيون مشعة، وأصوات بريئة صافية، يجمعون التبرعات لعمل الخير. ملاجئ العجزة ومآوي المشردين. جمعيات مكافحة الخمور والمخدرات. والبحوث الطبية وإنقاذ المستشفيات المهددة بالإغلاق. ضحايا الحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية.

"في عز الشتاء القاتم

أخذت الرياح الثلجية تولول

الأرض صلبة مثل الفولاذ

والماء جامد كالحجر

الثلج يسقط

ثلج فوق ثلج فوق ثلج"

يحبون أن ينزل الثلج في عيد الميلاد، ويقولون (عيد ميلاد أبيض) ولعله لا يسقط هذا العام، فالشمس تشرق، وقد خدعت بعض النباتات فازهرت قبل أوانها. والأبيات من ترنيمة للشاعرة (كرستينا روزتي – ١٨٣٠ —١٨٩٤) أخت الشاعر(دانتي قابرايل روزتي) وأشهر شاعرات العصر الفكتوري.

إنما هذه الترانيم، صنعها في الغالب، فقراء الشعب بطريقة عفوية تعبر عن إحساسهم الديني، وهو عندهم أعمق مما هو عند الأغنياء ولا تخلو من المرارة والوخز للطبقات المحظوظة.

كل ذلك اختفى بمرور الأيام، وتغير الأحوال، ولم يبق إلا الجانب الروحي الذي تراه أوضح ما يكون في وجوه هؤلاء الأطفال. يغنون للمثل الأعلى للطفولة في خيالهم، ويجمعون التبرعات لأطفال مثلهم، في بلاد لم يروها بأعينهم.

ولد طفل في حظيرة أغنام، كما تزعم رواياتهم، لأن السيدة البتول عليها السلام لم تجد مكاناً في الخان. ولد في بيت لحم من أعمال بيت المقدس. رأى الرعاة النجم فاتبعوه، ووضعوا هداياهم من الحملان بين يدي الطفل. ورأى الحكماء الملوك الثلاثة النجم حتى أتوا الوليد في الحظيرة، فوضعوا عنده هداياهم من التمر واللبان والبخور والذهب والفضة. هكذا تقول رواياتهم.

ماذا أستطيع أن أهديه؟

وأنا فقير ليس عندي شيء

لو كنت راعياً كنت أهديته حملاً

ولو كنت من الحكماء الثلاثة

كنت أهديته كما يجب إنما يا للأسف، ماذا أستطيع أنا أن أعطيه؟

سوف أعطيه قلبي"

هكذا فعلت أوروبا مع السيد المسيح عليه السلام. جعلوه رمزاً يناسب مزاجهم وظروفهم. ولد في عالم الشرق الدافئ المضيء. وكان هو نفسه ضوءاً. أخذوه رمزاً، وخلطوه بما عرفوا من رموزهم القديمة. جعلوا ميلاده في عز الشتاء لأنهم كانوا قبل أن يعتنقوا المسيحية، يحتفلون في هذا الوقت بالرقص والغناء والولائم. يبددون كآبة الشتاء، ويدفعون الخوف من المجهول، ويملأون ذلك الفصل الغامض بين العام المنصرم والعام الوليد بالصخب وافتعال الفرح.

سوف تمتلئ الكنائس بالمصلين في هذا الموسم في بلاد أكثر من ٨ في المائة من أهلها لا يدخلون الكنيسة طوال العام. يرسلون بطاقات عيد الميلاد لأناس لا يتصلون بهم عادة، وتجتمع أشتات الأسر المبعثرة.

يجتمعون حول غداء يوم الكريسماس. كانوا قبل أن يعرفوا الديك الرومي، يولمون بالوز والبط. يلي ذلك حلوى عيد الميلاد التي يصنعونها من الزبيب والتوابل. يسرفون في الأكل والشراب والضحك.

بعد الغداء يأخذون الهدايا من بين أغصان شجرة عيد الميلاد، ينزعون عنها في ضوضاء الأغلفة الجميلة الملونة، الأطفال خاصة والكبار يعودون أطفالاً .

شجرة عيد الميلاد هي أيضاً تقليد جديد عندهم .منذ العهد الفكتوري. ويقال إن الأمير (ألبرت) زوج الملكة فكتوريا هو أول من فعل ذلك. وهي تكون إما شجرة صغيرة لم تكبر بعد، أو تكون فرعاً من شجرة من النوع الهرمي المخروط الذي يظل مخضراً صيفاً وشتاء.

يلفون غصونها بأشرطة ملونة، ويضيئونها بثريات كهربائية صغيرة مختلفة الألوان ويضعونها في الغالب عند النافذة بحيث يراها السائر في الطريق. وهو بالفعل منظر جذاب أن تكون الأرض مغطاة بالجليد والظلام الدامس، وتنظر فترى هذه الأضواء الجميلة تلمع من نوافذ البيوت.

يكون الأطفال قد استيقظوا مبكرين في الصباح، ووجد كل واحد منهم كرسياً مملوءاً بالهدايا، يقولون لهم إن أباهم عيد الميلاد (فاذر كرسماس) قد تركها لهم. يدخل خلسة بعد منتصف الليل من فتحة المدخنة.

بالليل يجتمعون أمام التلفزيون. تغلب عليه في هذا الموسم قصص الخيال والفكاهة والرسوم المتحركة. مثل (سنو وايت والأقزام السبعة) و(الأميرة النائمة) و(توم اند جيري) وهو موسم لقصص (شارلز دكنز) خاصة قصته (ترنيمة عيد الميلاد) التي يتحول فيها (سكروج) البخيل إلى إنسان كريم رحيم بفضل معجزة عيد الميلاد.

يعطون أكثر في هذا الموسم، يدفعون أكثر للعامل الذي ينظف زجاج النوافذ والزبال، والذي ينظف المدخنة وبائع اللبن، والصبي الذي يحضر الصحف. ويجودون بالبنس والبنسين،

والجنيه والجنهين لأطفال العالم الفقراء في البلاد البعيدة، ومن بينهم أطفال المسلمين في البوسنة وبنجلادش والصومال وأفغانستان والسودان .

" عيد الميلاد قد أقبل

والوز قد اكتنز بالشحم

ضع من فضلك بنساً

في قبعة الرجل العجوز

إذا لم يكن عندك بنس

فنصف بنس يكفي

وإن لم يكن عندك نصف بنس

فعليك بركات الله والسلام"

عندما يستبدل الماضي بحاضر بشع

بلى، المدن مثل البشر، لها ظاهر وباطن، تُخفي عنك وجهاً وتلقاك بوجه. إلاّ أن هذه المدينة، كأنها بلا أسرار، وكأنّ ظاهرها هو باطنها .

السائق الذي استقبلني في المطار، إذ إن الهوتيلات في " بانكوك " ترسل لك سيارة تستقبلك في المطار، لم يمهلني طويلاً. لم تكد السيارة تتحرك، حتى التفت إليّ وعلى وجهه ابتسامة بريئة، نعم بريئة براءة حقيقية، وسألني :

" ما هي رغبات سعادتك ؟ ما هو الصنف الذي تفضله ؟ قل لي بصراحة. كل شيء متوافر ".

كانت إجراءات المطار قد تمت بسهولة، فالسياحة عندهم مصدررئيسي من مصادر الدخل، والكتب السياحية تقول لك إن في مدينة " بانكوك " ما يرضي كل " الأذواق " حتى الفيزا، تحصل عليها دون مشقة في المطار.

لم أضع وقتاً في سؤاله عن قصده، فقد فهمت قصده. قلت له :

أنا متعب الآن. بعد أن أستحم سوف أخبرك بـ" رغباتي ". كان الفصل صيفاً، وهذا مناخ استوائي. والمكان كأنه .. كأنه .. بماذا يذكرني هذا المكان والطائرة، هذه الركوبة المجنونة، تنقلك في لمح البصر من مناخ إلى مناخ، ولا تترك فرصة لخيالك كي يلحق بك.

نثرت أشيائي في الغرفة فصارت أقل وحشية، غرفة غريبة في بلد غريب، في أفق بعيد.

نظرت من النافذة إلى النهر، الذي أصبح منذ الغد " نهر الملوك ". إنه الآن قبيل الغروب نهر عادي، وهذا يكفيني. تستطيع أن تتخيل لوهلة أنك في القاهرة أو الخرطوم. الناس على الجسور، والسيارات تروح وتجيء، وهذا النهر كسائر الأنهار، يعطي المدينة وزنها وطابعها، ويحدد أبعادها، فكأنه مغناطيس يجذب إليه الحياة على الضفتين.

لأنني نشأت على ضفة نهر، فأنني أعتاد أسرع على المدن التي تقوم على ضفاف أنهار. أول ما قدمت مدينة الدوحة، قضيت زمناً وأنا أحس أن المدينة كأنها بلا مركز ثقل. وكأنها معلقة في الهواء. ثم أدركت أن سبب هذا الإحساس أن المدينة لا تقوم على ضفة نهر، وليس فيها سكك حديدية فلا تسمع ذلك الصوت المثير، صوت قعقعة القطارات أواخر الليل، طبعاً ألفتها بعد ذلك وأحببتها كما هي.

كنت قد تمهلت وأنا أتعرف على سكني الجديد الذي سوف يؤويني بضع ليالٍ ثم أرحل عنه، وقد لا أعود إليه أبداً. ونسيت أمر السائق الذي أوصلني من المطار. ولم يخطر لي أنه سوف يأخذ مزاجي مأخذ الجد ،لذلك دهشت حين وجدته ينتظرعند باب النزل. أسرع نحوي :

" ها ؟ هل ارتحت الآن ؟ ".

قلت له :

" لسَّع. لا أزال متعباً "

" غداً إذاً ؟ ".

" نعم، غداً ".

تسكعت قليلاً غير بعيد من الـ " هوتيل "، إعلانات " مقاصر التدليك " وصور النساء، شبه عاريات، تحاصرك من كل جانب. وسط المدينة، مثل كثير من مدن العالم، ليس فيه شيء يميّزه، وهذه البضاعة المعروضة في السوق، تزيد المكان قبحاً على قبح. وقد اتضح لي فيما بعد، أن مصيبة هذه المدينة أنها قطعت الوشائج بين ماضيها وحاضرها. وهي مدينة ليست وليدة اليوم، فقد أنشئت منذ أكثر من مائتي عام. الماضي تجده في المتاحف والمعابد والأبنية القديمة، وهنا هذه الحياة " الحديثة " بكل آفاتها منفصلة لا تمت إلى ذلك الماضي بصلة. الأمر ليس سهلاً، ونحن أيضاً. انظر إلى القاهرة المحروسة. في الوسط، تلك العمارات التي تُعد تحفاً في فن المعمار، انظر إلى منظرها الكئيب وهيئتها الرثة، وإلى الخراب الذي حاق بالمدينة على أيدي المقاولين والتجار ،رحم الله حسن فتحي الذي كان يصرخ في البريّة. والخرطوم أتعس حالاً. تلك المدينة التي تقوم في موقع من أجمل مواقع المدن في العالم، أي بشاعة حاقت بها من سوء التخطيط وقلة الذوق ! هل نحن حقاً فقراء إلى هذا الحد ؟

وقفت سيارة أمريكية فارهة، فيها امرأتان. التي تجلس وراء عجلة القيادة كأنها خليط من دم صيني ودم أمريكي. أنثى لا مراء في ذلك، ولكن شعرها قصير جداً " ألا جارسون" كأنها غلام .

قالت : " هل تحب أن تمضي وقتاً طيباً ؟ ".

يا له من سؤال ! ومن ذا الذي لا يحب أن يقضي وقتاً طيباً في هذه الحياة الدنيا ؟ ولكن ما أبعد هذا الذي يدعونني إليه من ا لوقت الطيب! أليس كذلك يا أخا كِندة؟ ما لك أخلدت إلى الصمت ؟ ألم تقل شعراً يصلح لهذا المقام؟

لا عليك، فأنا أعلم أنك تسمو عن هذا، وتربأ بنفسك عن مثل هذه القاذورات ولا تثريب عليك أنك جريت وراء خيالك أبعد قليلاً مما يجوز، حين قلت :

عُد وأعدها فحبذا تلـف

ألصق صدري بـ (..) الناهد.

قلت للمرأة مازحاً :

" هل أنت بنت أم ولد ؟ "

لم أتوقع ما حدث، وانتابني ما هو أكثر من الدهشة، إذ إن المرأة كشفت فجأة بحركة غاضبة عن صدر عار، صدر أنثى لا مراء في ذلك وأغلقت باب السيارة، وانطلقت لا تلوي على شيء.

أضحكني ذلك، ولا أدري ماذا كان يجب عليّ أن أفعل، فأنا بعدُ كاتب، وهذه التجارب على غرابتها حصادُ يُجمع ويُخزن إلى حين.

وجدت السائق عند باب الهوتيل، ضحك كأنه كان شاهداً على ما حدث، ضحك ضحكة بريئة بحق. البراءة ليست فضيلة في حد ذاتها، ولا بدّ لها من عزيمة تحميها. قال :

" غداً إذاً ؟ ".

قلت له :

" نعم. غداً ".

في اليوم الثالث قال لي السائق، ليس بغضب، ولكن كمن يعتب عليّ أنني أضيع على نفسي فرصة ثمينة :

" ما هي حكايتك ؟ أنت دائماً تعبان .. تعبان ؟ لك ثلاثة أيام. ألن تستجم بعد؟ " قلت له ضاحكاً :

" تريد الصراحة ؟ ليس لي رغبة فيما تعرضه عليّ. ولكن تعال أستضيفك على شراب ".

جلسنا في مقهى النُزل، وكنت قد أشفقت عليه، وأحسست ببعض الذنب أنني ضللته. مسكين. لابد أن له زوجة وأطفالاً، ويعول والديه المسنين. واضح من وجهه الوديع أنه بار بأبويه، رؤوف بأبنائه. ليس من " بانكوك " على الأرجح، فأغلب سكان المدن في عالم الفقراء، العالم الماذا ؟ الثالث ؟ نزحوا إليها من الريف. كأنه من " كوستي" أو" المُجلد " أو .. " جوبا " .. نعم، هذا هو. هذه المدينة الاستوائية تذكرني بـ " جوبا " وهؤلاء الناس يذكرونني بأهل جنوب السودان، دعْك من اختلاف الألوان. هل كان عندهم في سالف العصر والأوان فردوس ثم أضاعوه ؟ إذاً لماذا لا يبكون عليه كما نبكي نحن على فراديسنا الضائعة؟

رأوا الشوارع والزحام والعمارات الزجاجية والمحلات التجارية المنسقة بأصناف السلع المستوردة. خالوا السراب ماء. صدّقوا الوعود وظنوا أن ذلك الجحيم هو الفردوس الموعود .. تركوا زراعاتهم وصناعاتهم وجاءوا يسعون وراء الحلم المستحيل.

مخلوقات دمرت الحلم الجميل

* من أعجب ما سجّله التاريخ من أقوال المستوطنين البيض في أستراليا، عبارة لرجل يدعى "سي. لوكهارت"، قالها عام ١٨٤٩: "لا شيء سوف يحول دون انقراض عنصر الـ "أبوروجنيز" الذين شاءت الإرادة الإلهية أن تسمح لهم بالاحتفاظ بالأرض ريثما يجيء عنصر أفضل يحل محلهم".

هذا الرجل المغمور الذي لم ينسب له التاريخ عملاً يؤثر، استحق "الخلود" بأنه أفصح بهذه العبارة التي ظلت تزحف مع حركة التاريخ، كما يتحرك الحجر في قاع النهر. إنه عبّر دون مواربة، ودون حياء، عن مبرر أساسي من مبررات الاستعمار الأوروبي، وهو أن الأجناس غير الأوروبية، الـ "همج" في زعمهم ليسوا بشراً بمفهومهم للكلمة، ويمكن اعتبارهم غير موجودين، وأن الحيز الذي يشغلونه على سطح الأرض، هو في الحقيقة خالٍ من السكان. ولم يكتفوا بهذا الصلف العرقي، ولكنهم جعلوه قانوناً إلهياً. وأضفوا عليه مبرراً أخلاقياً. قد يكون الإله الذي تذرعوا به "برستنتياً" كما في أستراليا، أو كالفنياً كما في جنوب أفريقيا، أو كاثوليكياً كما في أمريكا اللاتينية، وقد يكون "يهوه" إله اليهود كما في فلسطين.

ويمكن أن يسمع الإنسان صدى عبارة مستر لوكهارت في عبارة جولدا مائير بعد أكثر من قرن من الزمان، "الفلسطينيون؟ أين هم هؤلاء الفلسطينيون؟". في ذلك الصباح من شهر كانون الثاني / يناير عام ١٧٨٨، حين رست سفن كابتن فيليب على شاطيء أستراليا، نظر البيض فلم ترعيونهم بشراً. رأوا شخوصاً مثل الأشباح هي في اعتقادهم "لا شيء" كانوا عراة تلمع أجسامهم في الشمس، من الدهن الذي يتمسحون به اتقاء الحشرات. على وجوههم ورقابهم علامات من طلاء. بأيديهم الرماح، وفي أنوفهم أشياء مثل الزمام. منهم من يحمل درعاً، ومنهم من يحمل آلة محدودبة.

وقف السود على صخور الشاطئ، وكانوا من قبيلة الـ "أيورا" كما نعلم الآن، ينظرون كالمسحورين، إلى المنظر الذي لابد أنه بدا لهم مثل كابوس من قوى شريرة اقتحمت حلمهم

الطويل. تلك المخلوقات الغريبة التي كأنما تسلخت جلودها عنها لشدة احمرارها، أخذت تفرغ حمولة القوارب التي كانت أضخم بكثير من القوارب التي اعتادوا عليها. خرج رجال ونساء وأطفال. بعضهم كانوا يرسفون في أغلال الحديد، وبعضهم يلبسون خرقاً ممزقة، وبعضهم يحملون السلاح، ويعطون الأوامر بأصوات شرسة.

ثم نظروا بدهشة أكبر، إلى عدد منهم يتجمعون تحت شجرة. وقف رجل بينهم وتحدث فيهم بصوت عريض، كما يتحدث الرجل الكبير إلى الأطفال. ثم أخذ كأنما يتلو ترانيم سحرية، كان الجمع يرددها وراءه. ذلك الرجل، كما تحدثنا كتب التاريخ، كان قسيساً بروتستانتياً يدعى "ريتشارد جونسون"، تخرج من جامعة كيمبردج، وتشرَّب مبادئ المذهب التبشيري المتطرف الذي كان سائداً تلك الأيام. وقد انضم إلى هذه الرحلة ليخدم "الرب"في تلك الأصقاع البعيدة. سارع أول ما ألقت السفن مراسيها فأقام الصلاة شكراً للإله أنه بلغهم مقصدهم سالمين، وأنه خولهم تلك الأرض، يتبوأون منها كيف شاءوا.

كانت مهمته عسيرة، كما اتضح فيما بعد، خاصة بين قومه البيض، الذين كانوا أبعد ما يكون، عن "الآباء المهاجرين" الذين ذهبوا من قبل إلى أمريكا. وأصبح "جونسون" هذا مشكلة بالنسبة للحكام العسكريين الذين لم يكونوا يشاطرونه حماسته الدينية. نظر الفريقان بعضهما إلى بعض في لحظة نادرة من لحظات التاريخ. ولم يعِ أحدهما عن الآخر أي شيء. كان "السود" غارقين في حلمهم الذي خُيل لهم أنه سوف يدوم إلى الأبد. سوف تمضي حقب قبل أن يفهموا مغزى الكارثة التي حاقت بهم.

أما البيض فإنهم لم يدركوا – وما كان يهمهم أن يدركوا – أن تلك الأشباح كانت جزءاً من "شعب" توطن تلك الأرض منذ أكثر من ثلاثين ألف عام. جاءوا في هجرات متعددة من آسيا، عبر "تسمانيا" و "غينيا الجديدة". انتشروا في جزيرة أستراليا بأكملها، وغطوا وجه الأرض مثل ثوب رقيق شفاف. وتقسموا إلى قبائل كان عددها نحو خمسمائة في تلك اللحظة. وكان عددهم نحو ثلاثمائة ألف.

كانوا مثل مستنقع انقطع عن نهر التاريخ، فعاشوا كل تلك القرون في عزلة تامة عن الأحداث التي ألمت ببقية سكان الأرض. ولما وصل الأوروبيون، وجدوهم لا يزالون في مرحلة البداوة الأولى، كانوا يعيشون على الصيد من البروالبحر، ويعتمدون على آلات بدائية ورغم ذلك فقد

ابتكروا نظاماً مكتملاً للعيش يلائمهم تماماً، وابتدعوا "ثقافة" ليست تافهة إذا نظرت فيها بإمعان، يمتزج فيها البحر بالسماء بالطبيعة بالماضي بالحاضر بالمستقبل في عناق سرمدي أسموه "زمن الحلم". وكانت الأرض هي مركز الحلم، إذا حرمتهم منها فقد حرمتهم كل شيء كأنما انتزعت "هويتهم" كما يُقال هذه الأيام.

تقول الأرض، بلسان شاعر أسترالي معاصر – من البيض – فالشعراء لا جنس لهم، وهم دائماً أكثر إنصافاً وأعمق إحساساً:

"... أين راح أبنائي الأبكار،

الذين أخرجتُهم من رحمي،

من زمان، من زمان؟

لماذا، لماذا يبكون ؟

ماذا حدث للأساطير،

الأساطير التي نسجتُ والقوانين؟

قل لي ماذا حدث؟

أنت الذي ولدتُ بعدهم

بزمان ،بزمان

لماذا، لماذا لا أسمع،

إلا صرخات أرواحهم تدوّي في الكهوف؟

في أستراليا أكثر من أي أرض أخرى استوطنها الأوروبيون، وقفت فلسفتان متناقضتان كلية إحداهما إزاء الأخرى. الفلسفة الأوروبية المادية في ناحية، كما تبلورت في القرن التاسع عشر، فلسفة تعتبر "الأرض" مجرد "شيء" من حق الإنسان أن يملكه ويستأثر به، ويقسمه كيف شاء، ويستغله كيفما بدا له. والإنسان، بمقتضى هذه الفلسفة، ليس الكائن البشري عموماً، ولكنه الإنسان القوي القادر، الذي اختارته العناية الإلهية وقوانين التمييز الطبيعية، أي

الأوروبي، ليكون خليفة على الأرض. وكان المؤمنون بهذه الفلسفة، يستندون إلى التفوق التكنولوجي وإلى المدافع والبارود.

في الجانب المقابل، وقفت فلسفة "أسطورية. شاعرية"، ترى "الأرض" على امتدادها، كائناً حياً، يحس يتألم، مخلوقاً له قداسة مثل "كاثدرائية مفتوحة" كما وصفها أحد الكتّاب. اختار المستوطنون الأوائل أرض الـ "أبوروجنيز". رأوا أناساً لا يشبهون أي أناس عرفوهم من قبل، أو سمعوا بهم. لم يجدوا لهم زعماء ولا معابد ولا أوثاناً يعبدونها ولا " ديانة يؤمنون بها. ولم يكونوا يملكون شيئاً، لا بيوت ولا مزارع ولا مقتنيات ولا أرضاً. وكانوا في ترحال مستمر، دون سبب واضح، كأنهم يبحثون عن شيء مهم ضاع منهم.

اتضح بعد زمن طويل أن الـ "أبورو جنيز" يعتبرون الأرض بأجمعها، معبداً لهم، وأن فيها علامات وألغازاً وأسراراً، لابد من مواصلتها باستمرار، وإلا توقفت الحياة،وأن "الأرض" تناديهم وتتحدث إليهم، وأن لهم طرقاً على وجه الأرض لا يخطئونها ،كما يعرف الطائر المهاجر طريقه في السماء.

عقلاء يهود

قال مستر (جوناثان برودَر) في كلمة صريحة متزنة، أن السياسة الأمريكية سياسة معقدة وقد تبدو متناقضة أحياناً، وأن على العرب أن يفهموا هذا التعقيد و(يتعلموا أصول اللعب).

وأضاف في صراحة لافتة: (السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط لها هدفان: ضمان تدفق البترول، وضمان أمن إسرائيل، ولا يوجد أي إحتمال في تغييرها). إنه رئيس التحرير في الإذاعة القومية في واشنطن، وهو يهودي، شأنه في ذلك شأن (جودث كبر) المديرة بالمشاركة لمركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن، و(توماس لبمان) المراسل الدبلوماسي لصحيفة الـ (واشنطن بوست) والسفير المتقاعد (والتر كتلر) رئيس مركز المريديان الدولي في واشنطن، و (هنري سقمان) الزميل في معهد الشؤون الدولية في نيويورك ، والسفير المتقاعد.

(روسكو سودارت) رئيس معهد الشرق الأوسط في واشنطن.

إننا بطبيعة الحال، لم نجد أية غضاضة أو غرابة، كونهم يهوداً، فقد تعلمنا من شريعتنا السمحاء وحضارتنا المضيئة، أن نحترم عقائد الآخرين ونتفهم إختلاف مذاهبهم في العيش- (لهم ما لنا وعليهم ما علينا). وإن كانت قلة من المسلمين بسبب ضيق الأفق وسوء الفهم للدين يسلكون بخلاف ذلك، فإنه شذوذ عن القاعدة.

الأمر الثابت طوال التاريخ هو أن اليهود لم يجدوا أبداً مثل ما وجدوا في المجتمعات العربية والإسلامية، من طمأنينة وقبول وإتاحة فرص لمواهبهم كي تزدهروتشارك في تطور حياة المجتمعات التي عاشوا فيها. كان منهم الوزراء والسفراء والفلاسفة والشعراء والأطباء والأدباء.

تلك التجربة الفريدة في التعايش الإنساني، كان حرياً أن يُحتفي بها ويُضرب بها المثل. ولكن الحركة الصهيونية- كما نعلم- في محاولاتها اليائسة لايجاد مبررات للاستيلاء على أرض فلسطين، تنكرت لتلك التجربة، بل صورتها على عكس ما كانت عليه، تماماً.

ولا يخفى أن الحركة الصهيونية حين أحست أن حجة (أرض المعاد) لا تكفي لتبرير استيلائهم على فلسطين، أخذت تلجأ إلى ذرائع أخرى.

قالوا إن الأرض كانت (خالية). إنما تلك حجة كان من السهل دحضها، فقد كان واضحاً لكل ذي عينين أن الأرض كانت تموج بالبشر الذين عاش اسلافهم فيها منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام.. وكانت جلبة النضال الفلسطيني لصد الاستعمار الصهيوني، لا تترك مجالاً للشك أن الأرض لم تكن خالية. وحتى لورد كيرزن، لم يملك إلا أن يقول في مجلس وزراء لويد جورج عام ١٩١٧، قبيل صدور وعد بلفور لإقامة (وطن قومي) لليهود في فلسطين:

(أنتم تقصدون في الحقيقة إنشاء (دولة) لليهود في فلسطين.. والأرض ليست خالية).

لجأوا عندئذ إلى حجة هي من أغرب الحُجج في التاريخ. قالوا.. إن عرب فلسطين (لا يستحقون الأرض)، لأنهم في زعمهم شعب خامل همجي بهيمي الطباع غدار منكر للجميل متعصب كاره للحضارة الأوروبية، وأن اليهود أحق منهم بأرض فلسطين، بسبب فضائلهم التي هي نقائض لكل تلك الرذائل العربية.

ثم انطلقوا فعمموا ذلك البهتان على العرب قاطبة على أنه عنصر بشري منحط، وعلى الحضارة العربية الإسلامية بحسبانها شيئاً مَسْخاً لا يرقى إلى مرتبة الحضارة. ترسيخ هذه المزاعم، هو الهدف وراء كل ما يسمعه العرب والمسلمون، ويقرأونه ويشاهدونه من تزييف في

وسائل الاتصال الأوروبية والأمريكية. ولا بد من الإعتراف أن الحماقات التي يجترحها بعض العرب- أفراداً ودولاً- تستغل استغلالاً ماهراً، لإضافة بشاعة على بشاعة.

في المقابل، فإن فكرة أن اليهود أحق بالأرض، هي وراء كل المزاعم الصهيونية، أنهم حولوا الصحراء إلى جنة، وأنهم أقاموا دولة ديمقراطية متحضرة في محيط من الرعاع والهمج والتخلف والاستبداد.

وقد نجحوا في دعايتهم نجاحاً منقطع النظير، بحيث استطاعوا أوكادوا، أن يحولوا شعوباً بأكملها وحضارة برمتها، إلى شئ تافه لا يؤبه له ولا يحسب حسابه.

هذا النجاح بعينه، أخذ فيما يبدو يزعج عقلاء اليهود- وكل اليهود الموجودين معنا في أصيلة من العقلاء- لأنهم بدأوا يدركون أن ذلك التصور للعرب والمسلمين، إن لم يتغير ويُوضع حد لانتشاره، فسوف يحول دون قيام سلام حقيقي. وهؤلاء العقلاء يفهمون أن اليهود الإسرائيليين في نهاية الأمر، محكوم عليهم بالعيش وسط أولئك الأقوام، وهم يزدادون عدَّاً وعتاداً يوماً بعد يوم.

ربما ذلك القلق من عقلاء اليهود الأمريكيين على مصير بني قومهم في فلسطين، هو الذي يفسر إلحاح أغلبهم في ندوة أصيلة- صراحة وتضميناً- أن يفعل العرب شيئاً يوقف ذلك الطوفان. ولم يكن مستر (جوناثان برودر) شاذاً عنهم. شرح بإسهاب كيف تعمل الدعاية الإسرائيلية في أمريكا. وطلب من العرب أن يفعلوا مثلهم، وقال:

(العرب انسحبوا من الميدان وتركوه مفتوحاً للطرف الآخر).

عويس ...... أمل في الادب

بروفيسور إبراهيم عويس، أمريكي من أصل مصري، وهو أستاذ اقتصاد في جامعة (جورج تاون) بواشنطن، الجامعة العتيدة نفسها التي ينتمي إليها بروفيسور هشام شرابي. وهو عالم يُحظى بكثير من التقدير، ومفكر رصين أبعد ما يكون عن التطرف. ورغم ذلك، ففي بعض ما ورد في كلمته في ندوة أصيلة، شئ من المرارة قريب مما ورد في كلمة الأستاذ هشام شرابي.

وأول ما لفت انتباهي، أن هذا العالم الاقتصادي الوقور، بدأ كلمته بأبيات للشاعر الانجليزي-الأميركي (تي. إس إليوت)، من قصيدته (أنشودة جي. ألفرد. بروفرك للحب):

(يوجد متسع من الوقت لك ومتسع من الوقت لي، ومتسع من الوقت لمئات الرؤى وإعادة الرؤى، قبل أن نشرب الشاي ونأكل الخبز المحمص).

وهي أبيات لا أحسبه اختارها اعتباطاً، إذ إن السخرية لا تخفى في أن الشاعر وضع (الرؤى) و (إعادة الرؤى)، جنباً إلى جنب مع (الشاي والخبز المحمَّص).

كأن بروفيسور إبراهيم عويس تعمد أن يضع عالم الوفرة إلى جانب عالم الفقراء، عالم الأقوياء إلى جانب عالم الضعفاء: الأمريكان بكل ما يظنون في أنفسهم من حول وطول في كفّة، والعرب- كما يبدون- بلا حول ولا طول في كفّة. وقد ظلت روح الأبيات تسري في سائر الكلمة مثل موسيقى (خلفية)، تخلق تضارباً مع مناخ الندوة، وتبث إحساساً من السخرية من الوضع القائم برُمته- أي الوضع الذي فرضته أمريكا. مضى بروفيسور عويس ليقول إنه لا بد من لقاءات كثيرة بين النخب الأمريكية والنخب العربية، على غرار لقاء أصيلة قبل أن ينجلي الظلام الكثيف من الشك وقصور الفهم والأخطاء.

وقال: إن على النُخب من الفريقين، أن يعملوا بجد وإخلاص للتعرف على المصالح المشتركة، إذ إن الشعبين، العربي والأمريكي، لا غنىً لأحدهما عن الآخر. فالعرب يملكون مخزوناً عظيماً من البترول وغيره من الثروات، وهي ثروات لا يمكن للعالم الصناعي، وخاصة الولايات المتحدة، أن يستغنى عنها. ومن ناحية أخرى، فالولايات المتحدة تملك المؤسسات العلمية والتكنولوجيا المتقدمة والعلوم والخبرة والمعدات والسلع المصنعة، وكل ذلك لا غنىً للعالم العربي عنه.

ثم أضاف:

(حان الوقت كي تبدأ النُخب الأمريكية والنُخب العربية في مداومة اللقاء والتواصل والتفكير الجاد لتصحيح المعتقدات الخاطئة والأفكار المشوهة. وهي معتقدات وأفكار زُرعت- من الجانب الأمريكي- بتعمد ولؤم، وترسَّخت في أذهان الأمريكيين بالإصرار عليها وتكرارها).

هذا، وقد قسم بروفيسور عويس ما سماه بـ (النُخب) إلى خمس، منها (النُخبة السياسية). وفي هذا الصدد لم يجد المتحدث أية بارقة أمل في أن تغير النخبة السياسية الأمريكية من سلوكها إزاء العالم العربي، وذلك بسبب انحياز أمريكا انحيازاً أعمى لإسرائيل، نتيجة لقوة نفوذ (اللوبي الإسرائيلي). وفي ما يتعلق بالنشاط الاقتصادي، قال بروفيسور عويس أنه يكاد يكون من جانب واحد، إذ إن تدفق المال العربي على أمريكا، لا يقابله أي تدفق في الاستثمارات الأمريكية على العالم العربي.

هذا، وقد كانت آراء الأستاذ إبراهيم عويس عن الإعلام الأمريكي ووسائل الاتصال. مطابقة مطابقةً كاملة لما ذكره الأستاذ هشام شرابي، من أنها متحيّزة ضد العرب والمسلمين، وأنها تلحُّ

إلحاحاً (مرعباً)، في تقديم صورة مشوَّهة للعالم العربي والعالم الإسلامي، أبعد ما تكون عن الحقيقة. الأمل الوحيد في (كسر الحلقة الشيطانية)- كما قال بروفيسور عويس- وهو أن ينشئ العرب أنفسهم وسائل اتصال عالية الكفاءة، تستطيع أن تنفذ إلى شبكات الاتصال العالمية خاصة الـ (انترنت) وتعمل على اختراق الحائط الإعلامي المضروب حول العالم العربي. النشاط الذي وجد فيه بروفيسور عويس أكبر أمل في إحداث أي تأثير، هو النشاط الثقافي والفكري. وبعد أن ذكر أسماء بعض المفكرين العرب الذين أحدثوا أثراً في أمريكا- أمثال أمين الريحاني وجبران خليل جبران وفيليب حتَّي وشارل عيساوي ونجيب محفوظ - قال الأستاذ إبراهيم عويس: (هذا مجال أجد فيه أملاً في إحداث تحسُّن ما. وإذ إن كل مفكر هو في الواقع مؤسسة مستقلة قائمة بذاتها، فإنني أقترح أن يجتمع مفكرون أمريكيون ومفكرون عرب في لقاءات دورية صغيرة لتبادل الرأي. وقد تكون من ثمار هذه اللقاءات أعمال أدبية وفكرية، كإصدارة روايات ومقالات وأشعار وغيرها.. وهو مجال فيه احتمالات واسعة للعمل المشترك). هذا، ولا أظنني بحاجة إلى أن ألفت انتباه القارئ، أن هذا العالم المرموق، بعد أن فقد الأمل في الاقتصاد والسياسة والإعلام، لم يجد شيئاً يبعث الأمل، إلا في الفكر والأدب والفن والثقافة عموماً.. ولا أظنه ابتعد عن الصواب.

كتاب جيل جديد (١)

في حضرة المريود

PDF



في حضرة المريود

كتاب جيل جديد (١)

يقول الشاعر محمد المكي إبراهيم أن الطيب صالح قد أطلق اسم مريود على بطل إحدى رواياته ومن ثم جعله عنواناً لها ، فكأنما نفخ بذلك في روح هذا الإسم ومنحه حياة جديدة ؛ إذ سرعان ما أصبح اسماً للمحلات والبقالات واللواري والشاحنات كما غدا إسماً معتمداً لمجلة أطفال إشتهرت آنذاك ، ولا يوجد من بين أدباء السودان من اقترب من هذا النجاح الداوي إلا التجاني يوسف بشير عبر ديوانه الشهير " إشراقة " ، ومحمد عبد الحي بقصيدته " السمندل يغني " ، لكن في حين أتت هذه التسميات من قواميس اللغة العربية وكلها الفصحى ، إلتقط الطيب صالح مفردة " مريود " من الريد والتي هي عبارة عن التصريف السوداني للفظ " يريد " ، وكأنما كان ذلك نوعاً من الفأل الطيب لأن أديبنا الكبير هو من كان أجدر الناس بالريدة وبوصف المريود . و يمكن القول أن المريود ومنذ البدء كان رهانه على الناس البسطاء متيقناً بأنهم المادة الخام لأي إبداع ، فقد كان يؤمن بأنهم خبراء الحياة الحقيقيون ، لذا حين قرأ هؤلاء البسطاء ما كتبه قالوا له : [دا كلامنا زاتو, لكن فيهو شويه لولوه] ، فأجابهم بأريحيته المحببه : [هذه اللولوه هي التي يسمونها فناً] .

PDF

يصدر عن مجلة جيل جديد - العدد ٢٤ - تصميم الغلاف : أيمن محمد
gealgaded2014.wordpress.com